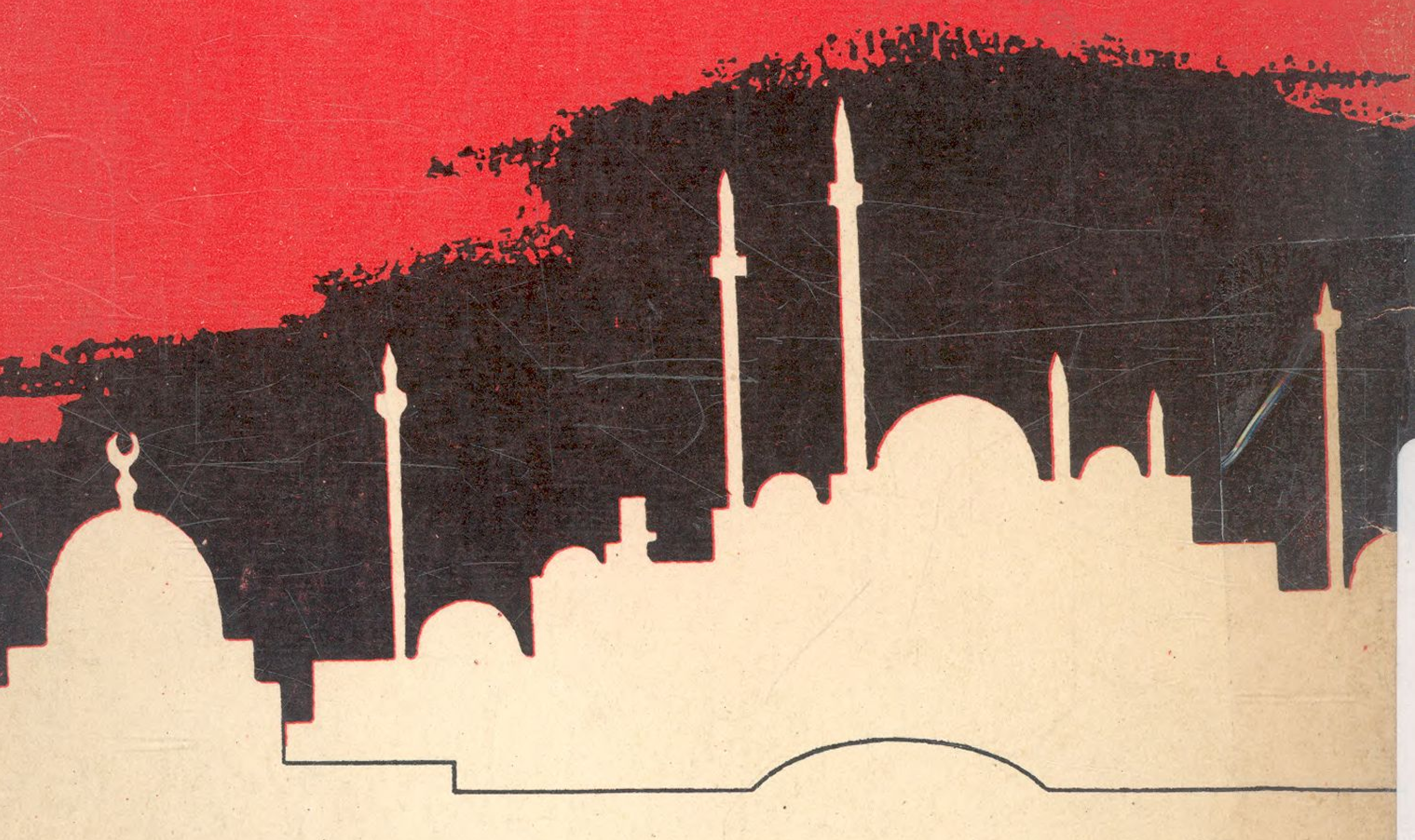
كتب قومية
مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر



جمال عبد الناصر



# فلسفة الثورة

كتب قومية
مكتبة الرئيس جمال عبد الناصر

# فلسفة الثورة

الدار القومية للطباعة والنشر

# مقدمة

ان هذه الخواطر ليست محاولة لتأليف كتاب ...

ولا هى محاولة لشرح أهداف ثورة ٢٣ يوليو وحوادثها ... انما هى شيء آخر تماما ..

انها أشبه ما تكون بدورية استكشاف ...

انها محاولة لاستكشاف نفوسنا لكى نعرف من نحن وما دورنا فى تاريخ مصر المتصل الحلقات ...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا فى الماضى والحاضر لكى نعرف فى أى طريق نسير ...

ومحاولة لاستكشاف أهدافنا والطاقة التى يجب أن نحشدها لنحقق هذه الأهداف ...

ومحاولة لاستكشاف الظروف المحيطة بنا ، لنعرف أننا لا نعيش فى جزيرة الماء من جميع الجهات ...

هذا هو الذى قصدت اليه ...

مجرد داورية استكشاف فى الميدان الذى نحارب فيه فى معركتنا الكبرى من أجل تحرير الوطن من كل الاغلال ...

**جمال عبد الناصر**

## الجزء الأول

ليست فلسفة ـ محاولات لم تتم ـ ليست مجرد تمرد ـ كنا في فلسطين وأحلامنا في مصر ـ أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ـ درس من إسرائيل ـ أيام التلمذة ـ الحقيقة والفراغ ـ لماذا كان لابد أن يتحرك الجيش ـ الصورة الكاملة ـ الطليعة والجموع ـ أقصى أماني ـ نموذج من أعضاء مجلس الثورة ـ أزمات نفسية ـ ثورتان في وقت واحد ـ لكيلا يقع تصادم على الطريق .

قبل أن أمضى فى هذا الحديث أريد أن أقف قليلا عند كلمة « فلسفة » .

ان الكلمة ضخمة وكبيرة ...

وأنا أحس وأنا واقف حيالها أنى أمام عالم واسع ليس له حدود ، وأشعر فى نفسى برهبة خفية تمنعنى من أن أخوض فى بحر ليس له قاع ، ولا أرى له على البعد ، من الشاطىء الذى أقف فيه شاطئا آخر انتهى اليه .

والحق أنى أريد أن أتجنب كلمة فلسفة فى هذا الذى سأقوله، ثم أنا أظن أنه من الصعب على أن اتحدث على فلسفة الثورة .
من الصعب لسببين :

أولهما :ان الحديث عن فلسفة ثورة ٢٣ يوليو يلزمه أساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى اعماق تاريخ شعبنا .

وقصص كفاح الشعوب ليس فيها فجوات يملؤها الهباء وكذلك ليس فيها مفاجآت تقفز الى الوجود دون مقدمات .

ان كفاح أى شعب ، جيلا بعد جيل ، بناء يرتفع حجرا فوق حجر ..

وكما أن كل حجر فى البناء يتخذ من الحجر الذى تحته قاعدة يرتكز عليها ، كذلك الأحداث فى قصص كفاح الشعوب.

كل حدث منها هو نتيجة لحدث سبقه ، وهو فى نفس الوقت مقدمة لحدث مازال فى ضمير الغيب ..

***

واست أريد أن أدعى لنفسى مقعد أستاذ التاريخ ..
ذلك آخر ما يجرى به خيالى .

ومع ذلك فلوحاولت محاولة تلميذ مبتدىء ، فى دراسة قصة كفاح شعبنا ، فانى سوف أقول مثلا أن ثورة ٢٣ يوليو هى تحقيق للأمل الذى راود شعب مصر ، منذ بدأ فى العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه بأيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفسه الكلمة العليا فى مصيره ...

لقد قام بمحاولة لم تحقق له الأمل الذى تمنـاه ، يوم تزعم السيد عمر مكرم حركة تنصيب محمد على واليا على مصر ،باسم شعبها ...

وقام بمحاولات لم تحقق له الأمل الذى تمنـاه ، يوم حاول عرابى أن يطالب بالدستور ...

وقام بمحاولات متعددة ، لم تحقق له الأمل الذى تمنـاه فى فترة الغليان الفكرى التى عاشها بين الثورة العرابية وثورة سـنة ١٩١٩ .

وكانت هذه الثورة الأخيرة ــ ثورة ١٩١٩ بزعامة سـعد زغلول ــ محاولة أخرى لم تحقق له الأمل الذى تمناه .

وليس صحيحا أن ثورة ٢٣ يوليو قامت بسبب النتائج التى أسفرت عنها حرب فلسطين ، وليس صحيحا كذلك أنها قامت بسبب الأسلحة الفاسدة التى راح ضحيتها جنود وضباط ، وأبعد من ذلك عن الصحة ما يقال أن السبب كان أزمة انتخابات نادى ضباط الجيش

انما الأمر فى رأيى كان أبعد من هذا وأعمق أغوارا .

ولو كان ضباط الجيش حاولوا ان يثوروا لأنفسهم لانه قد غرر بهم فى فلسطين ، أو لأن الأسلحة الفاسدة أرهقت أعصابهم، أو لأن اعتداء وقع على كرامتهم فى انتخابات نادى ضباط الجيش، لما كان الأمر يستحق أن يكون ثورة ، ولكان أقرب الأشياء الى وصفه أنه مجرد تمرد ، حتى وان كانت الأسباب التى أدت اليه منصفة عادلة فى حد ذاتها .

لقد كانت هذه كلها أسبابا عارضة ...

وربما كان أكبر تأثير لها أنها كانت تستحثنا على الاسراع فى طريق الثورة ولكننا كنا من غيرها نسير على هذا الطريق .

وأنا أحاول اليوم بعد كل ما مر بى من أحداث ، وبعد سنوات طويلة من بدء التفكير فى الثورة ، أن أعود بذاكرتى وأتعقب اليوم الأول الذى اكتشفت فيه بذورها فى نفسى .

ان هذا اليوم أبعد فى حياتى من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٥١، أيام ابتداء أزمة نادى الضباط ؛ ففى ذلك الوقت كان تنظيم

الضباط الأحرار قائما يباشر عمله ونشاطه ، بل أنا لا أغالى اذا قلت أن أزمة انتخابات النادى أثارها أكثر من أى شىء آخر نشاط الضباط الأحرار ، فقد شئنا فى ذلك الوقت أن ندخل معركة نجرب فيها قوتنا على التكتل وعلى التنظيم .

وهذا اليوم ـ فى حياتى أيضا ـ أبعد من بدء فضيحة الأسلحة الفاسدة، فقد كان تنظيم الضباط الأحرار موجودا قبلها ، وكانت منشوراتهم أول نذير بتلك المأساة ، وكان نشاطهم وراء الضجة التى قامت حول الأسلحة الفاسدة .

بل ان هذا اليوم فى حياتى أبعد من يوم ١٦ مايو سنة ١٩٤٨ ذلك اليوم الذى كان بداية حياتى فى حرب فلسطين .

***

وحين أحاول الآن أن أستعرض تفاصيل تجاربنا فى فلسطين أجد شيئا غريبا .

فقد كنا نحارب فى فلسطين ، ولكن أحلامنا كلها كانت فى مصر .

كان رصاصنا يتجه الى العدو الرابض أمامنا فى خنادقه ، ولكن قلوبنا كانت تحوم حول وطننا البعيد الذى تركناه للذئاب ترعاه ...

وفى فلسطين كانت خلايا الضباط الأحرار تدرس وتبحث وتجتمع فى الخنادق والمراكز .

في فلسطين جاءني صلاح سالم وزكريا محيي الدين،واخترقا الحصار الى الفالوجة ، وجلسنا في الحصار لا نعرف له نتيجة ولا نهاية ، وكان حديثنا الشاغل وطننا الذى يتعين علينا أن نحاول انقـــاذه ..

وفي فلسطين جلس بجوارى مرة كمال الدين حسين وقال لي وهو ساهم الفكر شارد النظرات :

ــ هل تعلم ماذا قال لي أحمد عبد العزيز قبل أن يموت ؟

قلت :

ــ ماذا قال ...؟

وقال كمال الدين حسين وفي صوته نبرة عميقة وفي عينيه نظرة أعمق :

ــ لقد قال لي : اسمع يا كمال ، ان ميدان الجهاد الأكبر هو في مصر ...

***

ولم ألتق في فلسطين بالأصدقاء الذين شاركوني في العمل من أجل مصر ، وانما التقيت أيضا بالأفكار التى أنارت أمامي السبيل!

وأنا أذكر أيام كنت أجلس في الخنــادق وأسرح بذهني الى مشاكلنا ...

كانت الفالوجة محاصرة ، وكان تركيز العدو عليها ضربا بالمدافع والطيران تركيزا هائلا مروعا .

وكثيرا ما قلت لنفسى :

« ها نحن هنا فى هذه الجحور محاصرين ، لقد غرر بنا،دفعنا الى معركة لم نعد لها ، لقد لعبت بأقدارنا مطامع ومؤامرات وشهوات ، وتركنا هنا تحت النيران بغير سلاح » .

وحين كنت أصل الى هذا الحد من تفكيرى كنت أجد خواطرى تقفز فجأة عبر ميادين القتال ، وعبر الحدود ، الى مصر، وأقول لنفسى :

هذا هو وطننا هناك ، انه « فالوجة » أخرى على نطاق أكبر ...

ان الذى يحدث لنا هنا صورة من الذى يحدث هناك ... صورة مصغرة ...

وطننا هو الآخر حاصرته المشاكل والأعداء ، وغرر به ... ودفع الى معركة لم يعد لها ، ولعبت بأقداره مطامع ومؤامرات وشهوات ، وترك هناك تحت النيران بغير سلاح !

***

وأكثر من هذا ، لم يكن الأصدقاء هم الذين تحدثوا معى عن مستقبل وطننا فى فلسطين ولم تكن التجارب هى التى قرعت

أفكارنا بالنذر والاحتمالات عن مصيره ، بل ان الأعداء أيضاً لعبوا دورهم فى تذكيرنا بالوطن ومشاكله ...

ومنذ أشهر قليلة قرأت مقالات كتبها عنى ضابط اسرائيلى أسمه « يردهان كوهين » ونشرتها له جريدة « جويشن أوبزرفر » وفى هذه المقالات روى الضابط اليهودى كيف التقى بى أثناء مباحثات واتصالات عن الهدنة وقال :

« لقد كان الموضوع الذى يطرقه جمال عبد الناصر معى دائما هو كفاح اسرائيل ضد الانجليز ، وكيف نظمنا حركة مقاومتنا السرية لهم فى فلسطين وكيف استطعنا ان نجند الرأى العام فى العالم وراءنا فى كفاحنا ضدهم » .

***

ثم ان هذا اليوم — اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى نفسى — أبعد من حادث ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ الذى كتبت بعده خطابا الى صديق قلت له فيه :

« ما العمل بعد أن وقعت الواقعة وقبلناها مستسلمين خاضعين خانعين ؟ »

الحقيقة أنى أعتقد أن الاستعمار يلعب بورقة واحدة فى يده بقصد التهديد فقط ، ولكن لو أنه أحس أن بعض المصريين ينوون التضحية بدمائهم ويقابلون القوة بالقوة لانسحب كأى امرأة من العاهرات ..

وطبعا هذا حاله أو تلك عادته ..

أما نحن ، اما الجيش ، فقد كان لهذا الحادث تأثير جديد على الروح المعنوية ، فبعد أن كنت ترى الضباط لايتكلمون الا عن الفساد واللهو اصبحوا يتكلمون عن التضحية والاستعداد لبذل النفوس فى سبيل الكرامة ، وأصبحت تراهم وكلهم ندم لأنهم لم يتدخلوا — مع ضعفهم الظاهر — ويردوا للبلاد كرامتها ، ويغسلوها بالدماء ، ولكن غدا لناظره قريب ..

لقد حاول بعضهم بعد الحادث أن يعملوا شيئا بغية الانتقام ، ولكن الوقت كان قد فات ، أما القلوب فكلها نار وأسى ..

والواقع أن هذه الحركة .. ان هذه الطعنة ردت الروح الى بعض الأجساد ، وعرفتهم أن هناك كرامة يجب أن يستعدوا للدفاع عنها وكان هذا درسا قاسيا .

وكذلك فان هذا اليوم أبعد فى حياتى من الفوران الذى عشت فيه أيام كنت طالبا أمشى مع المظاهرات الهاتفة بعودة دستور سنة ١٩٢٣ .. وقد عاد الدستور بالفعل — فى سنة ١٩٣٥ .. وأيام كنت أسعى مع وفود الطلبة : الى بيوت الزعماء نطلب منهم أن يتحدوا من أجل مصر ، وتألفت الجبهة الوطنية سنة ١٩٣٦ بالفعل على أثر هذه الجهود .

وأذكر أننى فى فترة الفوران هذه كتبت خطابا الى صديق من أصدقائى قلت فيه ، وكان تاريخه ٢ سبتمبر سنة ١٩٣٥ :

« أخي ..

خاطبت والدك يوم ٣٠ أغسطس فى التليفون وقد سألته عنك فأخبرنى أنك موجود فى المدرسة ..

لذلك عولت على أن أكتب اليك ما كنت سأكلمك فيه تليفونيا

قال الله تعالى « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة .. »

فأين تلك القوة التى نستعد بها لهم ؟.

ان الموقف اليوم دقيق ، ومصر فى موقف أدق .. ونحن نكاد نودع الحياة ونصافح الموت ، فان بناء اليأس عظيم الأركان،فأين من يهدم هذا البناء ؟..

ثم مضيت فى هذا الخطاب الى آخره ..

واذن فمتى كان ذلك اليوم الذى اكتشفت فيه بذور الثورة فى أعماقى ؟.. انه بعيد .

فاذا أضيف الى هذا كله ، أن تلك البذور لم تكن كامنة فى أعماقى وحدى ، وانما وجدتها كذلك فى أعماق كثيرين غيرى هم الآخرون بدورهم لا يستطيع الواحد منهم أن يتعقب بداية وجودها داخل كيانه ، لاتضح اذن أن هذه البذور ولدت فى أعماقنا حين ولدنا ، وأنها كانت أملا مكبوتا خلقه فى وجداننا جيل سبقنا ..

ولقد استطردت وراء هذا كله لأشرح السبب الأول الذى من أجله وجدت من الصعب على أن اتحدث عن فلسفة الثورة وقلت

ان هذا الحديث يلزمه اساتذة يتعمقون فى البحث عن جذورها الضاربة فى أعماق تاريخ شعبنا ..

أما السبب الثانى : فهو أننى كنت بنفسى داخل الدوامة العنيفة للثـــورة .

والذين يعيشون فى أعمــــاق الدوامة قد تخفى عليهم بعض التفاصيل البعيدة عنها ..

وكذلك كنت بايمانى وعقــلى وراء كل ما حدث ، وبنفس الطريقة التى حدث بها ، واذن فهل أستطيع أن أتجرد من نفسى حين أتكلم عنه ، وحين أتكلم عن المعانى المستترة وراءه ؟.

أنا من المؤمنين بأنه لاشىء يمكن أن يعيش فى فراغ .. حتى الحقيقة لا يمكن أن تعيش فى فراغ ..

والحقيقة الكامنة فى أعماقنا هى : ماتتصوره أنه الحقيقة أو بمعنى أصح : هو الحقيقة مضافا اليها نفوسنا ..

نفوسنا هى الوعاء الذى يعيش فيه كل مافينا ، وعلى شكل هذا الوعاء سوف يتشكل كل مايدخل فيه ، حتى الحقائق .

وأنا أحاول ـــ بقدر ماتستطيع طاقتى البشرية ـــ أن أمنــع نفسى من أن تغير كثيرا من شكل الحقيقة ، ولــكن الى أى حد سوف يلازمنى التوفيق ؟.

هذا سؤال .

وبعده أريد أن أكون منصفا لنفسى ، ومنصفا لفلسفة الثورة، فأتركها للتاريخ يجمع شكلها فى نفسي ، وشكلها فى نفوس غيرى وشكلها فى الحوادث جميعا ، ويخرج من هذا كله بالحقيقة كاملة.

***

واذن فما الذى أريد أن أتحدث عنه اذا كنت قد استبعدت كلمة «فلسفة» ؟ الواقع أن الذى أملكه فى هذا الصدد شيئان :

أولهما : مشاعر اتخذت شكل الأمل المبهم ، ثم شكل الفكرة المحددة ، ثم شكل التدبير العملى ، موضع التنفيـــذ الفعلى فى منتصف ليل ٢٣ يوليو حتى الآن ..

وعن هذه المشاعر والتجارب أريد أن أتحدث . .

لطالما ألح على خواطرى سؤال ، هو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ؟ » .

لقد قلت منذ سطور ، ان ثورة ٢٣ يوليو كانت تحقيقا لأمل كبير راود شعب مصر ، منذ بدأ العصر الحديث يفكر فى أن يكون حكمه فى أيدى أبنائه ، وفى أن تكون له نفس الكلمة العليا فى مصيره ..

واذا كان الأمر كذلك ، ولم يكن الذى حدث يوم ٢٣ يوليو تمردا عسكريا ، وليس ثورة شعبية ، فلماذا قدر للجيش ، دون غيره من القوى ، أن يحقق هذه الثورة

ولقد آمنت بالجندية طول عمرى ، والجندية تجعل للجيش واجبا واحدا ، هو أن يموت على حدود وطنه ، فلماذا وجد جيشنا نفسه مضطرا للعمل فى عاصمة الوطن ، لا على حدوده ؟.

ومرة أخرى ، دعونى أنبه الى أن الهـــزيمة فى فلسطين ، والأسلحة الفاسدة ، وأزمة نادى الضباط.. لم تكن المنابع الحقيقية التى تدفق منها السيل ، لقد كانت كلها عوامل مساعدة على سرعة التدفق ، ولكنها ــ كما سبق أن قلت ــ لا يمكن أبدا أن تـــكون هى الأصل والأساس.

واذن لماذا وقع على الجيش هذا الواجب ؟.

قلت : ان هذا السؤال طالما ألح على خواطرى ..

ألح عليهـــا ونحن فى دور الأمل والتفكير والتدبير بعـــد ٢٣ يوليـــو .

وألح عليها فى مراحل كثيرة من التجربة بعد ٢٣ يوليو .

ولقد كانت أمامنا مبررات مختلفة قبل ٢٣ يوليو تشرح لنـــا لماذا يجب أن نقوم بالذى قمنا به ..

كنا نقول : اذا لم يقم الجيش بهذا العمل فمن يقوم به ؟.

وكنا نقول : كنا نحن الشبح الذى يؤرق به الطاغية أحـــلام الشعب ، وقد آن لهذا الشبح أن يتحول الى الطاغية فيبدد أحلامه هـــو ..

وكنا نقول غير هذا كثيرا ، ولكن الأهم من كل ماكنا نقوله ، اننا كنا نشعر شعورا يمتد الى أعماق وجودنا بأن هـذا الواجب واجبنا ، واننا اذا لم نقم به فاننا نكون كأننا قد تخلينا عن أمانة مقدسة نيط بنا حملها ..

***

ولكنني أعترف أن الصورة الكاملة لم تتضح فى خيالى الا بعد فترة طويلة من التجربة عقب ٢٣ يوليو ..

وكانت تفاصيل هذه التجربة ، هى بعينها تفاصيل الصورة .

وأنا أشهد أنه مرت على بعد يوم ٢٣ يوليو نوبات اتهمت فيها نفسي وزملائي وباقى الجيش بالحماقة والجنون الذى صنعناه فى ٢٣ يوليـو ..

لقد كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة، وانها لاتنتظر الا طليعة تقتحم أمامها السور ، فتندفع الأمة وراءها صفوفا متراصة منتظمة تزحف زحفا مقدسا الى الهدف الكبير ..

وكنت أتصور دورنا على أنه دور طليعة الفدائيين ، وكنت أظن أن دورنا هذا لايستغرق أكثر من بضع ساعات ، ويأتى بعـدها الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ، بل قد كان الخيال يشطح بى أحيانا فيخيل الى أنى أسمع صليل الصفوف المتراصة وأسمع هدير الوقع الرهيب لزحفها المنظم الى الهـدف الكبير ، أسمع هذا كله ويبدو فى سمعى من فرط ايمانى بحقيقة مادية ، وليس مجرد تصورات خيال ..

ثم فاجأنى الواقع بعد ٢٣ يوليو ..

قامت الطليعة بمهمتها ، واقتحمت سور الطغيان ، وخلعت الطاغية ، ووقفت تنتظر وصول الزحف المقدس للصفوف المتراصة المنتظمة الى الهدف الكبير ..

وطال انتظارها ..

لقد جاءتها جموع ليس لها آخر .. ولكن ماأبعد الحقيقة عن الخيال !.

كانت الجموع التى جاءت أشياعا متفرقة ، وفلولا متناثرة ، وتعطل الزحف المقدس الى الهدف الكبير ، وبدت الصورة يومها قاتمة مخيفة تنذر بالخطر .

وساعتها أحسست وقلبى يملؤه الحزن وتقطر منه المرارة أن مهمة الطليعة لم تنته فى هذه الساعة ، وانما من هذه الساعة بدأت ..

كنا فى حاجة الى النظام ، فلم نجد وراءنا الا الفوضى ..

كنا فى حاجة الى الاتحاد ، فلم نجد وراءنا الا الخلاف ..

وكنا فى حاجة الى العمل ، فلم نجد وراءنا الا الخنوع والتكاسل ..

ومن هنا وليس من أى شىء آخر ، أخذت الثورة شعارها .

***

ولم نكن على استعداد ..

وذهبنا نلتمس الرأى من ذوى الرأى ، والخبرة من أصحابها .
ومن سوء حظنا لم نعثر على شىء كثير ..

كل رجل قابلناه لم يكن يهدف الا الى قتل رجل آخر !

وكل فكرة سمعناها لم تكن تهدف الا الى هدم فكرة أخرى!

ولو أطعنا كل ماسمعناه ، لقتلنا جميع الرجال وهدمنا جميع الأفكار ، ولما كان لنا بعدها مانعمله الا أن نجلس بين الأشلاء والأنقاض نندب الحظ البائس ونلوم القدر التعس !.

وانهالت علينا الشكاوى والعرائض بالألوف ومئات الألوف ، ولو أن هذه الشكاوى والعرائض كانت تروى لنا حالات تستحق الانصاف ، أو مظالم يجب أن يعود اليها العدل ، لكان الأمر منطقيا ومفهوما ، ولكن معظم ماكان يرد الينا لم يزد أو ينقص عن أن يكون طلبات انتقام .. كأن الثورة قامت لتكون سلاحا فى يد الحاقدين والمبغضين ! .

***

ولو أن أحدا سألنى فى تلك الأيام ، ماأعز أمانيك ؟ لقلت له على الفور :

ــ أن أسمع مصريا يقول كلمة انصاف فى حق مصرى آخر .

وأن أحس أن مصريا قد فتح قلبه للصفح والغفران والحب لاخوانه المصريين .

وأن أرى مصريا لايكرس وقته لتسفيه آراء مصرى آخر ..

وكانت هناك بعد ذلك كلمة أنانية فردية مستحكمة ..

كانت كلمة «أنا» على كل لسان .

كانت هى الحل لكل مشكلة ، وهى الدواء لكل داء ..

وكثيرا ماكنت أقابل كبراء — أو هكذا تسميهم الصحف — من كل الاتجاهات والألوان ، وكنت أسأل الواحد منهم عن مشكلة ألتمس عنده حلا لها ، فلم أكن أسمع الا «أنا» ..

مشاكل الاقتصاد «هو» وحده يفهمها ، أما الباقون جميعا فهم فى العلم أطفال يحبون .

ومشاكل السياسة «هو» وحده الخبير ، أما الباقون جميعا فما زالوا فى «ألف باء» لم يتقدموا بعدها حرفا واحدا .

وكنت أقابل الواحد من هؤلاء ، ثم أعود الى زملائى فأقول لهم فى حسرة :

— لافائدة .. هذا رجل لو سألناه عن مشكلة صيد السمك فى جزائر هاواى لما وجدنا عنده جوابا الا كلمة «أنا» ..!

أذكر مرة كنت أزور فيها احدى الجامعات .. ودعوت أساتذتها وجلست معهم أحاول أن أسمع منهم خبرة العلماء .

وتكلم أمامي منهم كثيرون .. وتكلموا طويلا ..

ومن سوء الحظ أن أحدا منهم لم يقدم لي أفكارا ، وانما كل واحد منهم لم يزد على أن قدم لي نفسه ، وكفاياته الخلقية وحدها لعمل المعجزات ، ورمقني كل واحد منهم بنظرة الذي يؤثرني على نفسه بكنوز الأرض وذخائر الخلود !.

وأذكر أني لم أتمالك نفسي فقمت بعدها أقول لهم :

« ان كل فرد منا يستطيع في مكانه أن يصنع معجزة ، ان واجبه الأول أن يعطي كل جهده لعمله ، ولو أنكم ، كأساتذة جامعات ، فكرتم في طلبتكم ، وجعلتموهم — كما يجب — عملكم الأساسي ، لاستطعتم أن تعطونا قوة هائلة لبناء الوطن .

ان كل واحد يجب أن يبقى في مكانه ويبذل فيه كل جهده .

لاتنظروا الينا ، لقد اضطرتنا الظروف أن نخرج من أماكننا لنقوم بواجب مقدس ، ولقد كنا نتمنى لو لم تكن للوطن حاجة بنا الا في صفوف الجيش كجنود محترفين ، واذن لبقينا فيه » .

ولم أشأ ساعتها أن أضرب لهم المثل من أعضاء مجلس قيادة الثورة ولم أشأ أن أقول لهم أنهم قبل أن يدعوهم الطارىء الذي دعاهم الى الواجب الأكبر كانوا يبذلون في عملهم كل جهدهم .

ولم أشأ أن أقول لهم ان معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا أساتذة فى كلية أركان الحرب ، وهذا دليل امتياز من ناحيتهم كجنود محترفين ..

وكذلك لم أشأ أن أقول لهم ان ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة ، هم عبد الحكيم عامر ، وصلاح سالم ، وكمال الدين حسين ، رقوا ترقيات استثنائية فى ميدان القتال فى فلسطين .

لم أشأ أن أقول لهم شيئا من هذا ، لأنى لا أريد أن أفاخر الناس بأعضاء مجلس قيادة الثورة وهم أخوتى وزملائى .

***

وأعترف أن هذا الحال كله سبب لى أزمة نفسية كئيبة .

ولكن التجارب فيما بعد ، وتأمل هذه التجارب واستخلاص معانيها الحقيقية ، خففت من وقع الأزمة فى نفسى ، وجعلتنى ألتمس لهذا كله أعذارا من الواقع عثرت عليها حين اتضحت أمامى — الى حد ما — الصورة الكاملة لحالة الوطن ، وأكثر من هذا أعطتنى الجواب على السؤال الذى قلت انه طالما راودنى ، وهو :

« هل كان يجب أن نقوم ، نحن الجيش ، بالذى قمنا به فى ٢٣ يوليو ؟ »

والجواب : نعم ، ولم يكن هناك مهرب أو مفر !.

وأنا الآن أستطيع أن أقول اننا نعيش فى ثورتين وليس فى ثورة واحدة .

ولكل شعب من شعوب الأرض ثورتان :

ثورة سياسية يسترد بها حقه فى حكم نفسه بنفسه من يد طاغية فرض عليه ، أو من جيش معتد أقام فى أرضه دون رضاه .

وثورة اجتماعية تتصارع فيها طبقاته ثم يستقر الأمر فيها على ما يحقق العدالة لأبناء الوطن الواحد .

لقد سبقتنا على طريق التقدم البشرى شعوب مرت بالثورتين ولكنها لم تعشهما معا . وانما فصل بين الواحدة والثانية مئات من السنين ، أما نحن فان التجربة الهائلة التى امتحن بها شعبنا هى أن تعيش الثورتان معا فى وقت واحد .

* * *

وهذه التجربة الهائلة مبعثها أن لكل من الثورتين ظروفا مختلفة تتنافر تنافرا عجيبا ، وتتصادم تصادما مروعا .

وان الثورة السياسية تتطلب لنجاحها وحدة جميع عناصر الأمة وترابطها وتساندها ونكرانها لذاتها فى سبيل الوطن كله .

الثورة الاجتماعية ، من أول مظاهرها ، تزلزل القيم وتخلخل العقائد ، تصارع المواطنين مع أنفسهم أفرادا وطبقات ، وتحكم الفساد والشك والكراهية .. والأنانية .

وبين شقى الرحى هذين ، قدر لنا أن نعيش اليوم فى ثورتين :
ثورة تحتم علينا أن نتحد ، ونتحاب ، ونتفانى فى الهدف . وثورة تفرض علينا — برغم ارادتنا — أن نتفرق ، وتسودنا البغضاء ، ولا يفكر كل منا الا فى نفسه .

وبين شقى الرحى هذين — مثلا — ضاعت ثورة ١٩١٩ ولم تستطع أن تحقق النتائج التى كان يجب أن تحققها .

الصفوف التى تراصت فى سنة ١٩١٩ تواجه الطغيان ، لم تلبث الا قليلا حتى شغلها الصراع فيما بينها أفرادا وطبقات .

وكانت النتيجة فشلا كبيرا ، فقد زاد الطغيان بعدها تحكما فينا ، سواء بواسطة قوات الاحتلال السافرة ، أو بصنائع الاحتلال المقنعة التى كان يتزعمها فى ذلك الوقت السلطان فؤاد وبعده ابنه فاروق ، ولم يحصد الشعب الا الشكوك فى نفسه والكراهية والبغضاء والأحقاد فيما بين أفراده وطبقاته .

وشحب الأمل الذى كان ينتظر أن تحققه ثورة ١٩١٩ .

***

ولقد قلت شحب الأمل . ولم أقل تلاشى ، ذلك لأن قوى المقاومة الطبيعيه التى تدفعها الآمال الكبيره التى تراود شعبنا ، كانت لاتزال تعمل عملها وتستعد لمحاولة جديدة .

وكان ذلك هو الحال الذى ساد بعد ثورة ١٩١٩ ، والذى فرض على الجيش أن يكون وحده القوة القادرة على العمل .

كان الموقف يتطلب أن تقوم قوة يقرب مابين أفرادها اطار واحد ، يبعد عنهم الى حد ما صراع الأفراد والطبقات،وأن تكون هذه القوة من صميم الشعب ، وأن يكون فى استطاعة أفرادها أن يثق بعضهم ببعض ، وأن يكون فى يدهم من عناصر القوة المادية مايكفل لهم عملا شريفا حاسما ، ولم تكن هذه الشروط تنطبق الا على الجيش .

وهكذا لم يكن الجيش — كما قلت — هو الذى حدد دوره فى الحوادث ؛ وانما العكس كان أقرب الى الصحة ، وكانت الحوادث وتطوراتها هى التى حددت للجيش دوره فى الصراع الكبير لتحرير الوطن .

***

ولقد أدركت منذ البداية أن نجاحنا يتوقف على ادراكنا الكامل لطبيعة الظروف التي نعيش فيها من تاريخ وطننا ، فاننا لم نكن نستطيع أن نغير هذه الظروف بجرة قلم، وكذلك لم نكن نستطيع أن نؤخر عقارب الساعة أو نقدمها ونتحكم فى الزمن .. وكذلك لم يكن فى استطاعتنا أن نقوم على طريق التاريخ بمهمة جندى المرور فنوقف مرور ثورة حتى تمر ثورة أخرى ، ونحول بذلك دون وقوع حادث اصطدام ، وانما كان الشيء الوحيد الذى نستطيعه هو أن نتصرف بقدر الامكان وننجو من أن يطحننا شقا الرحى !..

وكان لابد أن نسير فى طريق الثورتين معا .

ويوم سرنا فى طريق الثورة السياسية فخلعنا فاروقا عن عرشه سرنا خطوة مماثلة فى طريق الثورة الاجتماعية فقررنا تحديد الملكيـة .

ومازلت حتى اليوم أعتقد أنه ينبغى أن تظل ثورة ٢٣ يوليو محتفظة بقدرتها على الحركة السريعة والمبادأة ، لكى تستطيع أن تحقق معجزة السير فى ثورتين فى وقت واحد ، مهما يبدو فى بعض الأحيان من التناقض فى تصرفاتنا .

وحين جاءنى واحد من أصدقائى يقول لى :

« أنت تطالب بالاتحاد لمواجهة الانجليز ، وأنت فى نفس الوقت تسمح لمحاكم الغدر أن تستمر فى عملها .. »

استمعت اليه ، وكانت فى خيالى أزمتنا الكبيرة ، أزمة شقى الرحى :

أزمة تقتضينا أن نتحد صفا واحدا وننسى الماضى .

وثورة تفرض علينا أن نعيد الهيبة الضائعة لقيم الأخلاق ولا ننسى الماضى !.

ولم أقل لهذا الصديق : ان منفذنا الوحيد الى النجاة ، أن نحتفظ ــ كما قلت ــ بسرعة الحركة والمبادأة ، وبالقدرة على أن نسير فى طريقين فى وقت واحد .

ولم أشأ أنا ذلك ، ولا شاءه كل الذين شاركوا فى ٢٣ يوليو . ولكن القدر شاء ، وتاريخ شعبنا ، والمرحـلة التى يمر بها اليـوم .

## الجزء الثاني

العمل الايجابي ـ الحماسة لا تكفي ـ الرصاص يتكلم ـ صراخ وعويل في الليل ـ ما أسهل أن يراق الدم ـ جذور في التاريخ ـ يا عزيز يا عزيز ـ الفولاذ ينهار ـ سوف يتبلون هذا المجتمع ـ أعصاب الناس وعقولهم ـ أغضبنا الجميع ـ هـذه حدودنا وذلك واجبنا .

ولكن ما الذي نريد أن نصنعه ؟.

وما الطريق اليه ؟ .

الحق أنى فى معظم الأحيان كنت أعرف الاجابة على السؤال الأول . واخال أنى لم أكن وحدى المنفرد بهذه المعرفة ، وانما كانت تلك المعرفة أملا انعقد عليه اجماع جيلنا كله .

أما الاجابة عن السؤال الثانى «ما طريقنا الى هذا الذى نريد؟» فأنا أعترف أنها تغيرت فى خيالى كما لم يتغير شيء آخر ، وأكاد أعتقد أيضا أنها موضوع الخلاف الأكبر فى هذا الجيل !.

ومامن شك فى أننا جميعا نحلم بمصر المتحررة القوية .. ذلك أمر ليس فيه خلاف بين مصرى ومصرى .

أما الطريق الى التحرر والقوة .. فتلك عقدة العقد فى حياتنا.

ولقد واجهت تلك العقدة قبل ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ، وظللت أواجهها بعد ذلك كثيرا حتى اتضحت لى زوايا كثيرة كانت الظلال تسقط عليها فتخفيها ، وبدت أمام بصيرتى آفاق كان الظلام الذى ساد وطننا قرونا طويلة يلفها فلا أراها !

***

ولقد أحسست منذ انبثق الوعى فى وجدانى ، أن العمل الايجابى وجب أن يكون طريقنا .. ولكن أى عمل !.

ولقد تبدو كلمة «العمل الايجابى» على الورق كافية لتحل المشكلة . ولكنها فى الحياة ، وفى الظروف العسيرة التى عاشها

جيلنا ، وفى المحن التى كانت تنشب أظفارها فى مقدرات وطننا ، لم تكن كافية .

وفى فترة من حياتى كانت الحماسة هى العمـل الايجابى فى تقديرى . ثم تغير مثلى الأعلى فى العمل الايجابى وأصبحت أرى أنه لا يكفى أن تضج أعصابى وحدى بالحماسة ، وانما على أن أنقل حماستى كى تضج بها أعصاب الآخرين ..

وفى تلك الأيام قدت مظاهرات فى مدرسة النهضة ، وصرخت من أعماقى بطلب الاستقلال التام ، وصرخ ورائى كثيرون .. ولكن صراخنا ضاع هباء وبددته الرياح أصداء واهنة لا تحرك الجبـال ولا تحطم الصخور .

ثم أصبح العمل الايجابى فى رأيى أن يجتمع كل زعماء مصر ليتحدوا على كلمة واحدة ، وطافت جموعنا الهاتفة الثائرة ببيوتهم واحدا واحدا تطلب اليهم باسم شباب مصر أن يجتمعوا على كلمة واحدة .. ولكن اتحادهم على كلمة واحدة ، كان فجيعة لايمـانى . فان الكلمة الواحدة التى اجتمعوا عليها كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ .

***

وجاءت الحرب العالمية الثانية . وما سبقها بقليل على شـبابنا فألهبته وأشاعت النار فى خلجاته ، فبدأ اتجاهنا ، اتجاه جيل بأكمله يسير الى العنف .

وأعترف ـ ولعل النائب العام لايؤاخذنى بهذا الاعتراف ـ ان الاغتيالات السياسية توهجت فى خيالى المشتعل فى تلك الفترة على أنها العمل الايجابى الذى لا مفر من الاقدام عليه اذا كان يجب أن تنقذ مستقبل وطننا .

وفكرت فى اغتيال كثيرين وجدت أنهم العقبات التى تقف بين وطننا وبين مستقبله ، ورحت أفند جرائمهم ، وأضع نفسى موضع الحكم على أعمالهم ، وعلى الأضرار التى ألحقتها بهذا الوطن ، ثم أشفع ذلك كله بالحكم الذى يجب أن يصدر عليهم .

وفكرت فى اغتيال الملك السابق وبعض رجاله الذين كانوا يعبثون بمقدساتنا .

ولم أكن وحدى فى هذا التفكير .

ولما جلست مع غيرى انتقل بنا التفكير الى التدبير .

وما أكثر الخطط التى رسمتها فى تلك الأيام ، وما أكثر الليالى التى سهرتها ، أعد العدة للأعمال الايجابية المنتظرة .

كانت حياتنا فى تلك الفترة كأنها قصة بوليسية مثيرة .

كانت لنا أسرار هائلة ، وكانت لنا رموز ، وكنا نتستر بالظلام ، وكنا نرص المسدسات بجوار القنابل ، وكانت طلقات الرصاص هى الأمل الذى نحلم به !.

وقمنا بمحاولات كثيرة على هذا الاتجاه ، ومازلت أذكر حتى اليوم انفعالاتنا ومشاعرنا ونحن نندفع فى الطريق الى نهايته .

والحق انني لم أكن في أعماقي مستريحاً الى تصور العنف على أنه العمل الايجابي الذي يتعين علينا أن ننقذ به مستقبل وطننا .

كانت في نفسي حيرة ، تمتزج فيها عوامل متشابكة ، عوامل من الوطنية ومن الدين ، ومن الرحمة ومن القسوة ، ومن الايمان ومن الشك ، ومن العلم ومن الجهل ..

ورويدا رويدا وجدت فكرة الاغتيالات السياسية التي توهجت في خيالي ، تخبو جذوتها وتفقد قيمتها في قلبي كتحقيق للعمل الايجابي المنتظر .

وأذكر ليلة حاسمة في مجرى أفكاري وأحلامي في هذا الاتجاه ، كنا قد أعددنا العدة للعمل .

وأخترنا واحدا قلنا انه يجب أن يزول من الطريق .

ودرسنا ظروف حياة هذا الواحد ووضعنا الخطة بالتفاصيل .

وكانت الخطة أن نطلق الرصاص عليه وهو عائد الى بيته في الليل .

ورتبنا فرقة الهجوم التي تتولى اطلاق النار ، ورتبنا فرقة الحراسة التي تحمي فرقة الهجوم ، ورتبنا فرقة تنظيم الافلات الى النجاة بعد تنفيذ العملية بنجاح .

وجاءت الليلة الموعودة وخرجت بنفسي مع جماعات التنفيذ ، وسار كل شيء طبقا لما تصورناه .

كان المسرح خاليا كما توقعنا ، وكمنت الفرق فى أماكنها التى حددت لها ، اقبل الواحد الذى كان يجب أن يزول ، وانطلق نحوه الرصاص ..

وانسحبت فرقة التنفيذ ، وغطت انسحابها فرقة الحراسة ، وبدأت عملية الافلات الى النجاة ، وأدرت محرك سيارتى وانطلقت أغادر المسرح الذى شهد عملنا الايجابى الذى رتبناه .

وفجأة دوت فى سمعى أصوات صريخ وعويل ، وولولة امرأة ورعب طفل ، ثم استغاثة متصلة محمومة .

وكنت غارقا فى مجموعة من الانفعالات الثائرة ، والسيارة تندفع بى مسرعة .

ثم أدركت شيئا عجيبا .

كانت الأصوات مازالت تمزق سمعى .

الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة المحمومة .

لقد كنت بعدت عن المسرح بأكثر مما يمكن أن يسرى الصوت ، ومع ذلك بدأ ذلك كله يلاحقنى ويطاردنى .

ووصلت الى بيتى ، واستلقيت على فراشى ، وفى عقلى حمى وفى قلبى وضميرى غليان متصل .

وكانت أصوات الصراخ والعويل والولة والاستغاثة مازالت تطرق سمعى .

ولم أنم طول الليل ..

بقيت مستلقيا على فراشي في الظلام ، أشعل سيجارة وراء سيجارة ، وأسرح مع الخواطر الثائرة ، ثم تتبدد كل خواطري على الأصوات التي تلاحقني .

* أكنت على حق ؟.

وأقول لنفسي في يقين :

ـ دوافعي كانت من أجل وطني !

* أكانت تلك الوسيلة لامفر منها ؟.

وأقول لنفسي في شك :

ـ ماذا كان في استطاعتنا أن نفعل ؟.

* أيمكن حقا أن يتغير مستقبل بلدنا اذا خلصناه من هذا الواحد أو من غيره ، أم المسألة أعمق من هذا ؟.

وأقول لنفسي في حيرة :

ـ أكاد أحس أن المسألة أعمق ..

* اننا نحلم بمجد أمة ، فما هو الأهم : أيمضي من يجب أن يمضي ، أم يجيء من يجب أن يجيء ؟.

وأقول لنفسي واشعاعات من النور تتسرب بين الخواطر المزدحمة .

ـ بل المهم أن يجيء من يجب أن يجيء .. اننا نحـلم بمجد أمة .. ويجب أن يبنى هذا المجد !.

وأقول لنفسي ومازلت أتقلب في فراشي في الغرفة التي ملأها الدخان وتكاثفت فيها الانفعالات :

ـ واذن ؟.

ـ أسمع هاتفا يرد على :

ـ واذن ماذا ؟.

وأقول لنفسي في يقين هذه المرة :

ـ اذن يجب أن يتغير طريقنا .. ليس ذلك هو العمل الايجابي الذي يجب أن نتجه اليه .. المسألة أعمق جذورا وأكثر خطـورة وأبعـد أغوارا .

وأحس براحة نفسية صافية ، ولكن الصفاء ما يلبث أن تمزقه هو الآخر أصوات الصراخ والعويل والولولة والاستغاثة ، تلك التي مازالت أصداؤها ترن في أعماقي ؟.

ووجدت نفسي أقول فجأة :

ـ ليته لا يموت !.

وكان عجيبا أن يطلع على الفجر ، وأنا أتمنى الحياة للواحـد الذي تمنيت له الموت في المساء !.

وهرعت فى لهفة الى احدى صحف الصباح .. وأسعدنى أن الرجل الذى دبرت اغتياله .. قد كتبت له النجاة .

ولكن تلك لم تكن المشكلة الأساسية .

وانما المشكلة الأساسية .. هى العثور على العمل الايجابى !.

ومنذ ذلك الوقت بدأ تفكيرنا الحقيقى فى شىء أعمق جذورا وأكثر خطورة وأبعد أغوارا .

وبدأنا نرسم الخطوط الأولى فى الصورة التى تحققت مساء ٢٣ يوليو ، ثورة منبعثة من قلب الشعب ، حاملة لأمانيه ، مكملة لنفس الخطوات التى خطاها من قبل على طريق مستقبله .

ولقد بدأت هذا الحديث بسؤالين :

أولهما : ما الذى نريد أن نصنعه !؟.

والثانى : وما طريقنا اليه ؟ .

وقلت ان الاجابة عن السؤال الأول أمل انعقد عليه الاجماع .

أما السؤال الثانى : ماطريقنا الى الذى نريد أن نصنعه ؟ فهو الذى أطلت فيه الكلام حتى وصلت الى ٢٣ يوليو !.

ولكن أكان الذى حدث يوم ٢٣ يوليـــو هو كل مانريد أن نصــنعه ؟.

المؤكد أن الجواب بالنفى ، فان تلك لم تكن الا الخطـوة الأولى على الطريق .

والحق أن فرحة النجاح فى ٢٣ يوليو لم تخدعنى ، ولم تصور لى أن الآمال قد تحققت ، وأن الربيع قد جاء .. بل لعل العكس هـو الصحيح ..

لقد كانت كل دقيقة تحمل الى انتصارا جديدا للثورة ، تحمل الى فى نفس الوقت عبئا ضخما ثقيلا تلقيه بلا مبالاة فوق كتفى .

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث : «انى كنت أتصور قبل ٢٣ يوليو أن الأمة كلها متحفزة متأهبة ، وأنها لا تنتظـر الا طليعة تقتحم أمامها السور فتندفع الأمه وراءها صفوفا متراصـة منتظمة زاحفة » .

وقلت : انني تصورت دورنا على أنه دور الطليعـة ، وكنت أتصور أنه لن يستغرق أكثر من بضع دقائق يلحق بنا بعدها زحف الصفوف المنتظمة .

ورسمت أيضا فى ذلك الجزء صورة للخـلافات والفوضى والأحقاد والشهوات التى انطلقت من عقالها فى تلك اللحظات ، كل منها يحاول بأنانيته أن يستغل الثورة لتحقيق أهداف بعينها .

ولكن أشهد أنه كان يجب أن أتوقع أن يحدث الذى حدث .
ولقد قلت وسأظل أقول أن تلك كانت أقسى مفاجأة فى حياتى .

لم يكن يمكن أن نضغط على زر كهربائي فتتحقق آحلامنا .

ولم يكن يمكن في غمضـــة عين أن تزول رواسب قرون ومخلفات أجيـال .

ولقد كان من السهل وقتها ــ ومازال سهلا حتى الآن ــ أن نريق دماء عشرة أو عشرين أو ثلاثين ، فنضع الرعب والخوف في كثير من النفوس المترددة ونرغمها على أن تبتلع شهواتها وأحقـادها وآهواءها .

ولكن أي نتيجة كان يمكن أن يؤدي اليها مثل هذا العمل ؟.

ولقد كنت أرى أن الوسيلة لمواجهة مشكلة من المشاكل هو ردها الى أصلها ومحاولة تتبع الينبوع الذي بدأت منه .

وكان من الظلم أن يفرض حكم الدم علينا دون أن ننظر الى الظروف التاريخية التي مر بها شعبنا والتي تركت في نفوسنا جميعا تلك الآثار وصنعت منا ما نحن عليه الآن ..

ولقد قلت مرة أني لاأريد أن أدعي لنفسي مقعد أسـتاذ التاريخ ، فذلك آخر مايجري اليه خيالي ، وقلت اني سأحـاول محاولات تلميذ مبتدىء في التاريخ .

ولقد شاء لنا القدر أن نكون على مفرق الطريق من الدنيا .

وكثيرا ماكنا معبرا للغزاة ، مطمعا للمغامرين ، ومرت بنا ظروف كثيرة يستحيل علينا أن نعلل العوامل الكامنة في نفوس شعبنا الا اذا وضعناها موضع الاعتبار .

وفى رأيى أنه لا يمكن اغفال تاريخ مصر الفرعونى ، ثم تفاعل الروح اليونانى مع روحنا ، ثم غزو الرومان ، والفتح الاسلامى وموجات الهجرة العربية التى أعقبته .

وفى رأيى أيضا أنه يجب التوقف طويلا عند الظروف التى مرت علينا فى العصور الوسطى ، فان تلك الظروف هى التى وصلت بنا الى مانحن عليه الآن .

واذا كانت الحروب الصليبية بداية فجر النهضة فى أوروبا ، فقد كانت بداية عهود الظلام على وطننا .

فلقد تحمل شعبنا وحده معظم أعباء الحروب الصليبية ، وخرج بعدها فقيرا ، معدما ، منهوك القوى .

وفى نفس الوقت الذى هدته المعركة فيه ، شاءت له الظروف أن يعانى الذل تحت سنابك خيول الطغاة القادمين من المغـــول والشركس ..

كانوا يجيئون الى مصر عبيدا فيفتكون بأمرائهم ويصبحون هم الأمراء .

وكانوا يساقون اليها مماليك فلا تمضى عليهم فترة فى البـــلد الطيب الوديع حتى يصبحوا ملوكا .

وأصبح الطغيان والظلم والخراب ، طابع الحكم فى مصر على عهدهم الذى عاشت مصر فى مجاهله قرونا طويلة .

في تلك الفترة تحول وطننا الى غابة تحكمها وحوش ضارية.
كان المماليك يعتبرونها غنيمة سائغة ، وكان الصراع الرهيب بينهم هو على نصيب كل منهم في الغنيمة .

وكانت أرواحنا ، وثرواتنا ، وأراضينا ، هي الغنيمة .

وأحيانا حينما أعود الى تقليب صفحات من تاريخنا : أحس بالأسى يمزق نفسي اذاء تلك الفترة التي تكون فيها اقطاع طاغ لم يجعل له من عمل الا مص دماء الحياة من عروقنا ، وأكثر من هذا سحب بقايا الاحساس بالقوة والكرامة من هذه العروق ، وترك في أعماق نفوسنا تأثيرا يتعين علينا أن نكافح طويلا لكي نتغلب عليه ..

والواقع أن تصوري لهذا التأثير يعطيني في كثير من الأحيان تفسيرا لبعض المظاهر في حياتنا السياسية .

أحيانا مثلا يخيل الى أن كثيرين يقفون من الثورة موقف المتفرج الذي لا يعنيه من الأمر الا مجرد انتظار نتيجة معركة يتصارع فيها طرفان لا تربطه بأيهما علاقة .

وأحيانا أثور على هذا الوضع ، وأحيانا أقول لنفسي ولبعض من زملائي :

لماذا لا يقدمون ؟ ولماذا لا يخرجون من المكامن التي وضعوا فيها أنفسهم ، ليتكلموا ويتحركوا ؟.

ولا أجد تفسيرا لهذا الا رواسب حكم المماليك.

كان الأمراء يتصارعون ، ويتطاحن فرسانهم في الشوارع ويهرع الناس الى بيوتهم يغلقونها عليهم بعيدين عن هذا الصراع الذي لادخل لهم فيه .

وأحيانا يخيل الى أننا نلجأ الى خيالنا نكلفه أن يحقق لنا في اطار الوهم مانريده ، ونستمتع نحن بهذا الوهم ونعقد به عن محاولة تحقيقه .

ولم يتخلص كثيرون منا من هذا الشعور بعد ، ولم يهضموا أن البلد بلدهم وأنهم سادته وأصحاب الأمر فيه .

ولقد ظللت مرة أحاول أن أفهم عبارة كثيرا ماهتفت بها طفلا صغيرا حينما كنت أرى الطائرات في السماء .

« ياربنا ياعزيز .. داهية تاخد الانجليز » .

ولقد اكتشفت فيما بعد أننا ورثنا هذه العبارة عن أجدادنا على عهد المماليك ، ولم تكن يومها منصبة على الانجليز ، وانما حورناها نحن أو حورتها الرواسب الكامنة فينا والتى لم تتغير وان تغير اسم الظالم ، فقد كان أجدادنا يقولون :

« يارب يامتجلى .. اهلك العثمللى ! » .

وبنفس الروح التى لم يتغير جرى المعنى على لساننا وان تغير اسم « الانجليز » باسم العثمانيين طبقا للتغييرات السياسية التى توالت على مصر بين العهدين !.

ثم ماذا حدث لنا بعد عهد المماليك ؟

جاءت الحملة الفرنسية ، وتحطم الستار الحديدى الذى فرضه المغول علينا ، وتدفقت علينا أفكار جديدة ، وتفتحت لنا آفاق لم يكن لنا بها عهد .

وورثت أسرة محمد على كل ظروف المماليك ، وان حاولت أن تضع عليها من الملابس ما يناسب زى القرن التاسع عشر .

وبدأ اتصالنا بأوروبا والعالم كله من جديد .

بدأت اليقظة الحديثة !.

وبدأت اليقظة بأزمة جديدة .

لقد كنا - فى رأيى - أشبه بمريض قضى زمنا فى غرفة مغلقة ، واشتدت الحرارة داخل الغرفة المغلقة حتى كادت أنفاس المريض تختنق ..

وفجأة هبت عاصفة حطمت النوافذ والأبواب ، وتدافعت تيارات الهواء البارد تلسع جسد المريض الذى مازال يتصبب عرقا .

لقد كان فى حاجة الى نسمة هواء . فانطلق عليه اعصار عات ، وأنشبت الحمى أظافرها فى الجسد المنهوك القوى .

هذا ما حدث لمجتمعنا تماما ، وكانت تجربة محفوفة بالمخاطر !.

كان المجتمع الأوروبى قد سار فى تطوره بنظـام ، واجتاز الجسر بين عصر النهضة من أعقاب القرون الوسطى الى القـرن التاسع عشر خطوة خطوة ، وتلاحقت مراحل التطور واحدة أثر أخـرى .

أما نحن فقد كان كل شيء مفاجئا لنا .

كنا نعيش داخل ستار من الفولاذ فانهار فجأة .

كنا قد انقطعنا عن العالم واعتزلنا أحواله ، خصوصا بعـد تحول التجارة مع الشرق الى طريق رأس الرجاء الصالح ، فاذا نحن نصبح مطمع دول أوروبا ومعبرا الى مستعمراتها فى الشرق والجنـــوب .

وانطلقت علينا تيارات من الأفكار والآراء لم تكن المرحلة التى وصلنا اليها فى تطورنا تؤهلنا لقبولها .

كانت أرواحنا مازالت تعيش فى آثار القرن الثالث عشر ، وان سرت فى نواحيها المختلفة مظاهر القــرن التاسع عشر ثم القــرن العشرين .

وكانت عقولنا . تحاول أن تلحق بقافلة البشرية المتقدمة التى تخلفنا عنها خمسة قرون أو يزيد ، وكان الشوط ماضيا والسباق مروعا مخيفـا .

وما من شك فى أن هذا الحال هو المسئول عن عدم وجود رأى عام قوى متحد فى بلادنا ، فان الفارق بين الفرد والفرد كبير والفارق بين الجيل والجيل شاسع .

ولقد جاء على وقت كنت أشكو فيه من أن الناس لايعرفون ماذا يريدون ، وأن اجماعهم لا ينعقد على طريق واحديسيرون فيه ثم أدركت بعدها أننى أطلب المستحيل ، واننى أسقط من حسابى ظروف مجتمعنا ..

اننا نعيش فى مجتمع لم يتبلور بعد ، ومازال يفور ويتحرك ولم يهدأ حتى الآن أو يتخذ وضعه المستقر ويواصل تطوره التدريجى بعد مع باقى الشعوب التى سبقتنا على الطريق .

وأنا أعتقد ، دون أن أكون فى ذلك متملقا لعواطف الناس ، أن شعبنا صنع معجزة ، ولقد كان يمكن أن يضيع أى مجتمع تعرض لهذه الظروف التى تعرض لها مجتمعنا ، وكان يمكن أن تجرفه هذه التيارات التى تدفقت علينا .. ولكننا صمدنا للزلزال العنيف .

صحيح أننا نفقد توازننا فى بعض الظروف ، ولكننا بصفة عامة ، لم نقع على الأرض .

وأنا أنظر أحيانا الى أسرة مصرية عادية من آلاف الأسر التى تعيش فى العاصمة .

الأب مثلا فلاح معمم من صميم الريف .

والأم سيدة منحدرة من أصل تركى .

وأبناء الأسرة فى مدارس على النظام الانجليزى .

وفتياتها فى مدارس على النظام الفرنسى .

كل هذا بين روح القرن الثالث عشر ومظاهر القرن العشرين .

أنظر الى هذا وأحس فى أعماقى بفهم للحيرة التى نقاسيها وللتخبط الذى يفترسنا ، ثم أقول لنفسى :

ـ سوف يتبلور هذا المجتمع ، وسوف يتماسك ، وسوف يكون وحدة قوية متجانسة ، انما ينبغى أن نشد أعصابنا وتتحمل فترة الانتقال .

تلك اذن هى الأصول التى انحدرت منها أحوالنا اليوم ، وهذه هى الينابيع التى تجرى منها أزمتنا ، فاذا أضفت الى هذه الجذور الاجتماعية ، ظروفا من أجلها طردنا «فاروق» ، ومن أجلها نريد تحرير بلادنا من أى جندى غريب ـ اذا أضفت هذا كله ، لخرجنا الى الأفق الواسع الذى نعمل فيه ، والذى تهب عليه الرياح من كل ناحية . وتزمجر فى جنباته العواطف الهوج ، وتتوهج فيه البروق وتهدر الرعود ، والذى قلت أنه من الظلم أن يفرض فيه علينا تحكم الدم ، مع مراعاة كل هذه الظروف والملابسات .

واذن ماهو الطريق ؟

وماهو دورنا على هذا الطريق ؟

أما الطريق فهو الحرية السياسية والاقتصادية .

وأما دورنا فيه فدور الحراس فقط ، لايزيد ولا ينقص . . . الحراس لمدة معينة بالذات موقوته بأجل .

وما أشبه شعبنا الآن بقافلة كان يجب أن تلزم طريقا معينا وطال عليها الطريق ، وقابلتها المصاعب ، وانبرى لها اللصوص وقطاع الطرق ، وضللها السراب ، فتبعثرت القافلة. كل جماعة منها شردت فى ناحية ، وكل فرد مضى فى اتجاه .

وما أشبه مهمتنا فى هذا الوضع بدور الذى يمضى فيجمع الشاردين والتائهين ليضعهم على الطريق الصحيح ثم يتركهم يواصلون السير .

هذا هو دورنا ولا أتصور لنا دورا سواه .

ولو خطر لى أننا نستطيع أن نحل كل مشاكل وطننا لكنت واهما ، وأنا لاأحب أن أتعلق بالأوهام .

اننا لا نملك القدرة على ذلك ، ولا نملك الخبرة لنقوم به .

انما كل عملنا أن نحدد معالم الطريق كما قلت ، وأن نجرى وراء الشاردين فنردهم الى حيث ينبغى أن يبدأوا المسير ، وان نلحق بالسائرين وراء السراب فنقنعهم بعبث الوهم الذى يجرون وراءه .

ولقد كنت مدركا منذ البداية أنها لن تكون مهمة سهلة، وكنت أعلم مقدما أنها ستكلفنا الكثير من شعبيتنا .

لقد كان يجب أن نتكلم بصراحة ، وأن نخاطب عقول الناس ، وكان الذين سبقونا قد تعودوا أن يعطـــوا الوهم ، وأن يقولوا للناس مايريد الناس أن يسمعوه !.

وما أسهل الحديث الى غرائز الناس ، وما أصعب الحـديث الى عقولهم !.

وغرائزنا جميعا واحدة ، أما عقولنافموضع الخلاف والتفاوت، وكان ساسة مصر فى الماضى من الذكاء بحيث أدركوا هذه الحقيقة فاتجهوا الى الغريزة يخاطبونها . أما العقل فتركوه هائما على وجهه فى الصحراء .

وكنا نستطيع أن نفعل نفس الشيء .

كنا نستطيع أن نملأ أعصاب الناس بالـكلمات الكبيرة التى لاتخرج عن حد الوهم والخيال . أو تدفعهم وراء أعمال غيرمنظمة لم تعد لها العدة أو تتخذ لها أهبة ، أو كنا نستطيع أن نتـــرك أصواتهم تبح من كثرة هتافهم :

« يا ربنا يا عزيز .. داهية تاخد الانجليز » .

تماما كما كان أجدادنا تبح أصواتهم أيام المماليك من كثرة هتـــافهم :

« يارب يامتجلى .. اهلك العثمللى » .

وبعدها لاشيء !.

لكن أكانت تلك مهمتنا التى شاءها لنا القدر ؟.

وما الذى كنا نستطيع أن نحققه فعلا اذا سرنا فى هذا السبيل؟

ولقد قلت فى الجزء الأول من هذا الحديث أن نجاح الثورة يتوقف على ادراكها لحقيقة الظروف التى تواجهها ، وقدرتها على الحركة السريعة . وأضيف الآن الى ذلك أنها يجب أن تتحرر من آثار الألفاظ البراقة،وأن تقدم على ما تتصور أنه واجبها مهما كان الثمن شعبيتها ومن الهتاف بحياتها والتصفيق لها !.

والا فاننا نكون قد تخلينا عن أمانة الثورة وعن واجباتها .

***

وكثيرا ما يجيئنى من يقول لى :

ــ لقد أغضبتم كل الناس .

وعلى مثل هذه الملاحظة ارد دائما :

ــ ليس غضب الناس هو العامل المؤثر فى الموقف ، وانما السؤال هل كان الذى أغضبهم يعمل لصالح الوطن أو لغيره ؟.

أنا أدرك أننا أغضبنا كبار الملاك .

لكن ، هل كان يمكن ألا نغضبهم ونترك تربة وطننا وفينا من يملك منها عشرات الألوف من الأفدنة وفينا من لا يملك قطعة يدفن فيها بعد أن يموت ؟ .

وأنا أدرك أننا أغضبنا الساسة القدماء !.

ولكن هل كان يمكن أن نغضبهم ونترك وطننا فريسة لشهواتهم وفسادهم وصراعهم على مغانم الحكم ؟.

وأنا أدرك أننا أغضبنا عددا كبيرا من الموظفين .

ولكن هل كان يمكن أن نعطى أكثر من نصف ميزانية الدولة مرتبات للموظفين ولا نستطيع ـ كما صنعنا بالفعل ـ أن نخصص أربعين مليونا من الجنيهات للمشروعات الانتاجية ؟.

ماذا علينا لو كنا فتحنا ـ كما فعل غيرنا ـ خزائن الدولة ووزعنا مافيها على الموظفين وليكن بعد ذلك الطوفان ، وليكن ـ أيضا ـ أن يجىء العام القادم فلا تستطيع الحكومة أن تدفع مرتبات موظفيها أصلا وأساسا .

وما كان أسهل أن نرضى هؤلاء جميعا وغيرهم .. ولكن ما الثمن الذى كان وطننا سيدفعه من آماله ومستقبله فى مقابل هذا الرضا ؟.

***

ذلك دورنا الذى حدده لنا تاريخ وطننا ، ولا مفر أمامنا من أن نقوم به ، مهما كان الثمن الذى ندفعه .

ولم نخطىء أبدا فى فهم هذا الدور ، ولا فى ادراك طبيعة الواجبات التى تلقيها علينا .

تلك خطوات لاصلاح آثار الماضى ورواسبه مضينا فيها وتحملنا من أجلها كل شىء .

فلما جاء الكلام عن المستقبل قلنا اننا لا نملك هذا وحدنا .

***

فمن أجل ضمان الحياة السياسية فى المستقبل ذهبنا الى عدد من قادة الرأى من مختلف الطبقات والعقائد وقلنا لهم .

ــ ضعوا للبلد دستورا يصون مقدساته .

وكانت لجنة وضع الدستور .

ومن أجل ضمان الحياة الاقتصادية فى المستقبل ذهبنا الى أكبر الأساتذة فى مختلف نواحى الخبرة وقلنا لهم :

نظموا للبلد رخاءه واضمنوا لقمة العيش لكل فرد فيه .

وكان مجلس الانتاج .

تلك حدودنا لم نتعدها !

ازالة الصخور والعقبات من الطريق ، مهما يكن الثمن .

والعمل للمستقبل من كل نواحيه مفتوح لكل ذوى الرأى والخبرة ، فرض لازم عليهم وليس لنا أن نستأثر به دونهم ، بل ان مهمتنا تقتضى أن نسعى لجمعهم من أجل مستقبل مصر .. مصر القوية المتحررة !.

## الجزء الثالث

بعد غيبة ثلاثة شهور ـ الزمان والمكان ـ القدر لا يهـــزل ـ دوائر ثلاث ـ دور يبحث عن بطلة ـ فلسطين ليست بلدا غريبا ـ لقاء مع عرب فلسطين ـ اغلى اسرار الطيران ـ افكار فى ميـــدان القتال ـ الأرض والنجوم ـ نظرة الى مذكرات وايزمان ـ الكفاح الواحد وعناصره ـ القوة بالأرقام ـ مسئولياتنا فى افريقيـــا ـ الحكمة الحقيقية من الحج .

مرة ثالثة أعود الى فلسفة الثورة .

أعود اليها بعد غيبة طويلة امتدت الى أكثر من ثلاثة شهور حافلة بالأحداث والتطورات السريعة المتلاحقة .

ثلاثة شهور حاولت خلالها أكثر من مرة أن أجد الساعات التى أسجل فيها هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ، فعصفت رياح الأحداث السريعة والتطورات المتلاحقة بهذه المحاولات وبعثرتها فى الفضاء .

ولكن الرياح التى عصفت بمحاولات التسجيل لم تعصف بالخواطر نفسها ، وصحيح أن هذه الخواطر لم تجر على ورق ، ولكنها ظلت تدور فى تفكيرى وتتفاعل مع غيرها وتبحث عن تفاصيل أخرى ، سواء فى ذاكرتى أو فى الأيام، تضيفها اليها لتكمل بها صورة صحيحة واضحة .

ولكن ما الصورة الصحيحة الواضحة التى أريد أن أرسمها هذه المرة ؟ وما علاقتها بالمحاولات التى قمت بها قبل ذلك ، فى الجزء الأول ثم فى الجزء الثانى من هذه الخواطر عن فلسفة الثورة ؟.

لقد تحدثت فى الجزء الأول عن بداية الثورة فى نفوسنا كأفراد ، وفى نفوسنا كنماذج عادية من شباب جيلنا ، وعن الثورة فى تاريخ أمتنا ، وعن يوم ٢٣ يوليو فى هذه الثورة .

وفى الجزء الثانى تحدثت عن محاولات على طريق الثورة، وكيف حدد لنا تاريخ شعبنا هذه الطريق ، سواء فى نظرتنا المليئة بالعبر الى الماضى أو فى تطلعنا المفعم بالأمل الى المستقبل .

واذن فقد كان حديثى فى الجزأين السابقين عن الزمان ، ومن هنا أشعر بأن المكان يطالب بحقه ، واذن فليكن الحديث فى هذه المرة عنـــه .

وليس هدفى أن أدخل فى بحث فلسفى معقـــد عن الزمان والمكان . وانما الذى لاشك فيه هــو أن العالم كله ، لا وطننا فحسب ، هو نتيجة لتفاعل الزمان والمكان

واذا كنت أقول اننا فى تصويرنا لأحوال وطننا لانستطيع أن ننسى عنصر الزمان ، فاننا أيضا وبنسبة متساوية لا نستطيع أن ننسى عنصر المـــكان .

وبعبارة أبسط :

نحن الآن لا نســتطيع أن نعود الى القرن العاشر ، نرتدى ملابسه التى تبدو لعيوننا غريبه مضحكة ، ونتوه فى أفكاره التى تظهر أمامنا اليوم أطباقا من الظلام خلت من كل شعاع .

وكذلك نحن الآن لا نستطيع أن نتصرف، على أننا قطعــة من ألاسكا المتعلقة بأقصى أصقاع الشمال ، أو على أننا جزيرة«ويك» النائية المهجورة فى تيه الباسفيك .

الزمان اذن يفرض علينا تطوره .

والمكان أيضا يفرض علينا حقيقته .

ولقد حاولت مرتين أن أمضى مع الزمان ، فلأحاول هذه المرة أن أتجول فى عالم المكان .

***

وثمة شيء يجب أن نتفق عليه أولا وقبل أن نمضى فى هذا الحديث ذلك هو تعريف حدود المكان بالنسبة لنا .

ان قال لى أحد أن المكان بالنسبة لنا هو هذه العاصمة التى نعيش فيها فانى أختلف معه . وان قال لى أحد ان المكان بالنسبة لنا هو حدود بلادنا السياسية فانى أيضا أختلف معه .

ولو كان الأمر كله محصورا فى حدود عاصمتنا . أو فى حدود بلادنا السياسية لهان الأمر ، ولأقفلنا على أنفسنا كل الأبواب وعشنا فى برج عاجى نحاول أن نبتعد به بقدر مانستطيع عن العالم ومشاكله وحروبه وأزماته تلك التى تقتحم علينا أبواب بلادنا وتؤثر فينا دون أن يكون لنا فيها دخل أو نصيب .

ولقد مضى عهد العزلة .

وذهبت الأيام التى كانت فيها خطوط الأسلاك الشائكة التى تخطط حدود الدول تفصل وتعزل .

ولم يعد مفر أمام كل بلد أن يدير البصر حوله خارج حدود بلاده ليعلم من أين تجيئه التيارات التي تؤثر فيه، وكيف يمكن أن يعيش مع غيره وكيف .. وكيف ..

ولم يعد مفر أمام كل دولة من أن تجيل البصر حولها تبحث عن وضعها وظروفها في المكان ، وترى ماذا تستطيع أن تفعل فيه وماهو مجالها الحيوى وميدان نشاطها ودورها الايجابى فى هذا العالم المضطرب .

وأنا أجلس أحيانا في غرفة مكتبي وأسرح بخواطرى فى نفس هذا الموضوع أسائل نفسي :

ـــ ماهو دورنا الايجابى فى هذا العالم المضطرب ، وأين هو المكان الذى يجب أن نقوم فيه بهذا الدور ؟.

وأستعرض ظروفنا وأخرج بمجموعة من الدوائر لامفر لنا من أن يدور عليها نشاطنا وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا .

ان القدر لايهزل ، ليست هناك أحداث من صنع الصدفة ، ولا وجود يصنعه الهباء .

ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان .

أيمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا ، وأن هذه الدائرة منا ونحن منها ، امتزج تاريخنا بتاريخها ، وارتبطت مصالحنا بمصالحها . حقيقة وفعلا لا مجرد كلام ؟.

أيمكن أن تتجاهل أن هناك قارة افريقية شاء لنا القدر أن نكون فيها ، وشاء أيضا أن يكون فيها اليوم صراع مروع حول مستقبلها ، وهو صراع سوف تكون آثاره لنا أو علينا سواء أردنا أو لم نرد.

أيمكن أن تتجاهل أن هناك عالما اسلاميا تجمعنا واياه روابط لاتقر بها العقيدة الدينية فحسب ، وانما تشدها حقائق التاريخ .
وكما قلت مرة : ان القدر لايهزل .

فليس عبثا أن بلدنا فى جنوب غرب آسيا يلاصق الدول العربية وتشتبك حياته بحياتها .

وليس عبثا أن بلدنا يقع فى شمال شرق أفريقيا ، ويطل من على القارة السوداء التى يدور فيها اليوم أعنف صراع بين مستعمريها البيض وأهلها السود من أجل مواردها التى لا تحد .

وليس عبثا أن الحضارة الاسلامية والتراث الاسلامى ـ الذى أغار عليه المغول الذين اكتسحوا عواصم الاسلام القديمة ـ تراجع الى مصر وآوى اليها فحمته مصر وانقذته عندما ردت غزو المغول على أعقابه فى عين جالوت .

كل هذه حقائق أصيلة ذات جذور عميقة فى حياتنا ، لانستطيع مهما نحاول أن ننساها أو نفر منها .

***

ولست أدرى لماذا أذكر دائما عندما أصل الى هذه المرحلة من أفكارى وأنا جالس وحدى فى غرفتى شاردا مع الأفكار ، قصة

مشهورة للشاعر الايطالى الكبير « لويدجى بيراندلو » اسماها :
ست شخصيات تبحث عن ممثلين !

ان ظروف التاريخ مليئة بالأبطال الذين صنعوا لأنفسهم أدوار بطولة مجيدة قاموا بها فى ظروف حاسمة على مسرحه .

ان ظروف التاريخ أيضا مليئة بأدوار البطولة المجيدة التى لم تجد بعد الأبطال الذين يقومون بها على مسرحه ، ولست أدرى لماذا يخيل الى دائما أن فى هذه المنطقة التى نعيش فيها دورا هائما على وجهه يبحث عن البطل الذى يقوم به ، ثم لست أدرى لماذا يخيل الى أن هذا الدور الذى أرهقه التجوال فى المنطقة الواسعة الممتدة فى كل مكان حولنا ، قد استقر به المطاف متعبا منهوك القوى على حدود بلادنا يشير الينا أن نتحرك ، وأن ننهض بالدور ونرتدى ملابسه فان أحدا غيرنا لا يستطيع القيام به .

وأبادر هنا فأقول ان الدور ليس دور زعامة .

انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل ، يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة فى كل اتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة فى هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابى فى بناء مستقبل البشر .

وما من شك فى أن الدائرة العربية هى أهم هـذه الدوائر وأوثقها ارتباطا بنا .

فلقد امتزجت معنا بالتاريخ وعانينا معها نفس المحن ، وعشنا نفس الأزمات ، وحين وقعنا تحت سنابك خيل الغزاة كانوا معنا تحت نفس السنابك .

وامتزجت هـذه الدوائر معنا أيضـا بالدين ، فنقلت مراكز الاشعاع الدينى ، فى حدود عواصمها ، من مكة ، الى الكوفة ، ثم الى القاهرة ، ثم جمعها الجوار فى اطار ربطته كل هذه العوامل التاريخية والمادية والروحية .

وأنا أذكر فيما يتعلق بنفسى أن طلائع الوعى العـربى بدأت تتسلل الى تفكيرى وأنا طالب فى المدرسة الثانوية أخرج مع زملائى فى اضراب عام فى الثانى من شهر ديسمبر من كل سنة احتجاجا على وعد بلفور الذى منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطنا قوميا فى فلسطين ، اغتصبه ظلما من أصحابه الشرعيين .

وحين كنت أسائل نفسى فى ذلك الوقت : لماذا أخـــرج فى حماسة ، ولماذا أغضب لهذه الأرض التى لم أرها ؟ لم أكن أجد فى نفسى سوى أصداء العاطفة .

ثم بدأ نوع من الفهم يخالج تفكيرى حول هذا الموضوع لما أصبحت طالبا فى الكلية الحربيـة أدرس تاريخ حملات فلسطين بصفة خاصة ، وأدرس بصفة عامة تاريخ المنطقة وظروفها التى جعلت

منها فى القرن الأخير فريسة سهلة تتخطفها أنياب مجموعة من الوحوش الجائعة !.

ثم بدأ الفهم يتضح وتتكشف الأعمدة التى تتركز عليها حقائقه لما بدأت أدرس وأنا طالب فى كلية أركان الحرب حملة فلسطين ومشاكل البحر المتوسط بالتفصيل .

ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعا فى أعماقى بأن القتال فى فلسطين ليس قتالا فى أرض غريبة . وهو ليس انسياقا وراء عاطفة وانما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس !.

***

وأذكر يوما عقب صدور قرار تقسيم فلسطين فى شهر سبتمبر سنة ١٩٤٧ عقد فيه الضباط الأحرار اجتماعا واستقر رأيهم على مساعدة المقاومة فى فلسطين . وذهبت فى اليوم التالى أطرق باب بيت الحاج أمين الحسينى مفتى فلسطين،وكان لا يزال يعيش فى الزيتون ، وأقول له :

ــ انكم فى حاجة الى ضباط يقودون المعارك ويدربون المتطوعين وفى الجيش المصرى عدد كبير من الضباط يريد أن يتطوع وهم تحت أمرك فى أى وقت تشاء !.

وقال لى الحاج أمين الحسينى انه سعيد بهذه الروح ، ولكنه يرى أن يستأذن الحكومة المصرية قبل أن يقول شيئا .

ثم قال لي الحاج أمين :

سوف أعطيك ردي بعد استئذان الحكومة .

وعدت اليه بعد أيام ، وكان رده ، الرد الذى حصل عليه من الحكومة ، هو الرفض !.

ولم نسكت .

وبعدها كانت مدفعية أحمد عبد العزيز تدك المستعمرات اليهودية جنوبى القدس ، وكان قائد المدفعية هو كمال الدين حسين عضو اللجنة التأسيسية للضباط الأحرار التى تحولت الى مجلس قيادة الثورة .

أذكر سرا آخر كان ذات يوم أغلى أسرار الضباط الأحرار .

كان حسن ابراهيم قد سافر الى دمشق ، واتصل ببعض ضباط القاوقجى . وكان القاوقجى يقود قوات التحرير العربية ويستعد لمعركة حاسمة فاصلة في المنطقة الشمالية من فلسطين .

ووضع حسن ابراهيم وعبد اللطيف بغدادى خطة جريئة للقيام بعمل حاسم فى المعركة التى تستعد لها قوات التحرير .

كانت الخطوط البارزة فى تلك الخطة هى أن قوات التحرير العربية لا تملك طيرانا يساعدها فى المعركة ويرجح النصر الى كفتها ، ولو أنها حصلت على معونة من الجو بضرب مركز فوق ميدان العملية

لكان ذلك عاملا فاصلا ، ولكن من أين لقوات التحرير العربية بالطيران لتحقيق هذا الحلم ؟.

ولم تكن مصر قد دخلت حرب فلسطين ، وكان جو الرقابة على القوات المسلحة ـ بما فيها سلاح الطيران ـ حذرا متيقظا !.

ومع ذلك لم يجد اليأس ثغرة ينفذ منها الى تفاصيل الخطة

وبدأت فى مطار سلاح الطيران حركة عجيبة ، وبرز فيها نشاط واسع لاصلاح طائرات واعدادها ، وجهود واضحة فى التدريب سرت كالحمى فى نفوس عدد من الطيارين ..

ولم يكن هناك الا قلائل يعرفون السر ..

يعرفون أن الطائرات وقوادها قد أعدوا ليوم تجىء فيه من سوريا اشارة سرية ، فينطلقون بعدها الى الجو ليشتركوا بكل قواتهم فى معركة حاسمة على الأرض المقدسة . ثم يتجهون بعد ذلك الى مطار قرب دمشق ، ينزلون فيه ويترقبون الأحوال فى مصر ، ويتعرفون صدى هذه الحركة التى أقدموا عليها ، ثم يقررون كيف يتصرفون بعدها !.

وكان أرجح الاحتمالات أن يحاكم كل طيار اشترك فى هذه العملية وأذكر أن كثيرين كانوا قد رتبوا أمورهم على أن الظروف ربما تحول بينهم وبين العودة الى الوطن قبل سنوات قد تطول وتمتد ..

وكان شعورنا فى اللجنة التنفيذية للضباط الأحرار . والمؤكد ان نفس الشعور كان يراود خواطر كل الطيارين المشتركين فى العبر الكبير ان هذه المخاطرة الجريئة لم تكن حبا فى المغامرة ، ولا كانت رد فعل للعاطفة فى نفوسنا ، انما كانت وعيا ظاهرا لايماننا بأن رفح ليست آخر حدود بلادنا ، وأن نطاق سلامتنا يقضى علينا أن ندافع عن حدود اخواننا الذين شاءت لنا أحكام القدر أن نعيش معهم فى منطقة واحدة .

***

ولم تتم الخطة يومها .. لأننا لم نتلق الاشارة السرية من سوريا .

وقضت الظروف بعدها أن تدخل الجيوش العربية كلها الحرب فى فلسطين .

ولست أريد أن أدخل فى تفاصيل حرب فلسطين — الآن — فذلك بحث تتشعب فيه الأحاديث ، وانما يعنينى من حرب فلسطين درس عجيب .

لقد دخلتها شعوب العرب جميعا بدرجة واحدة من الحماسة ، واذن فهذه الشعوب جميعا تتشارك فى شعورها وفى تقديرها لحدود سلامتها .

ثم خرجت منها هذه الشعوب بنفس المرارة والخيبة ، واذن فهى جميعا ، كل منها فى بلاده ، قد تعرض لنفس العوامل وحكمتها نفس القوى التى ساقتها الى الهزيمة ونكست رأسها بالذل والعار .

ولقد خلوت الى نفسى مرات كثيرة فى خنادق عراق المنشية وفى جحورها .

وكنت يومها أركان حرب الكتيبة السادسة التى كانت تقف فى ذلك القطاع وتدافع عنه أحيانا وتهاجم فى أكثر الأحيان .

وكنت أخرج الى الأطلال المحطمة من حولى بفعل نيران العدو ثم أسبح بعيدا مع الخيال .

وأحيانا كانت الرحلة مع الخيال تمضى بى بعيدا الى آفاق النجوم ، فأطل من هذا الارتفاع الشاهق على المنطقة بأكملها .

وكانت الصورة تبـــدو فى ذلك الوقت واضـــحة أمام بصيرتى

هذا هو المكان الذى نقبع محاصرين فيه ، هذه مواقع كتيبتنا وهذه مواقع الكتائب الأخرى المشتركة معنا على الخط .

وهذه قوات العدو تحيط بنا .

وهذه قوات أخرى لنا .. هى أيضا محـاصرة لا تسـتطيع الحركة الواسعة وان بقى لها مجال للمناورة المحدودة .

ان الظروف السياسية المحيطة بالعاصمة التى تتـلقى منها الأوامر تحيطها بحصار وتلحق بها عجزا أكثر من الذى تصنعه بنا نحن القابعين فى منطقة الفالوجة .

ثم هذه قوات اخواننا فى السلاح وفى الوطن الكبير وفى المصلحة المشتركة وفى الدافع الذى جعلنا نهرول الى أرض فلسطين .

هذه هى جيوش اخواننا .. جيشا جيشا .. كلها هى أيضا محاصرة بفعل الظروف التى كانت تحيط بها والتى كانت تحيط بحكومتها .. لقد كانت جميعا تبدو كقطع شطرنج لا قوة لها ولا ارادة الا بقدر ما تحركها أيدى اللاعبين .

وكانت شعوبنا جميعا تبدو فى مؤخرة الخطوط ضحية مؤامرة محبوكة أخفت عنها عمدا مايجرى ، وضللتها حتى عن وجودها نفسه .

وأحيانا كنت أهبط من ارتفاع النجوم الى سطح الأرض ، فأحس أننى أدافع عن بيتى وعن أولادى ، ولا تعنينى أحلامى الموهومة والعواصم والدول والشعوب والتاريخ .

وكان ذلك عندما ألتقى فى تجوالى فوق الأطلال المحطمة ببعض أطفال اللاجئين الذين سقطوا فى براثن الحصار بعد أن خربت بيوتهم وضاع كل ما يملكون ، وأذكر بينهم طفلة صغيرة كانت فى مثل عمر ابنتى ، وكنت أراها وقد خرجت الى الخطر والرصاص الطائش مندفعة أمام سياط الجوع والبرد تبحث عن لقمة عيش أو خرقة قماش .

وكنت دائما أقول لنفسى :

ــ قد يحدث هذا لابنتى !

وكنت مؤمنا أن الذى يحدث لفلسطين كان يمكن أن يحدث — وما زال احتمال حدوثه قائما — لأى بلد فى هذه المنطقة مادام مستسلما للعوامل والعناصر والقوى التى تحكمه الآن .

***

ولما انتهى الحصار وانتهت المعارك فى فلسطين وعدت الى الوطن ، وكانت المنطقة كلها فى تصورى قد أصبحت كلا واحدا .

وأيدت الحوادث التى جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد فى نفسى .

كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجد أصداء يتجاوب بعضها مع بعض .

كان الحادث يقع فى القاهرة فيقع مثيل له فى دمشق غدا،وفى بيروت وفى عمان ، وفى بغداد ، وغيرها .

وكان ذلك كله طبيعيا مع الصورة التى رسمتها التجارب فى نفسى .

منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل ، بل نفس القوى المتألبة عليها جميعا .

وكان واضحا أن الاستعمار هو أبرز هذه القوى .

حتى اسرائيل نفسها ، لم تكن الا أثرا من آثار الاستعمار .

فلولا أن فلسطين وقعت تحت الانتداب البريطانى لما استطاعت الصهيونية أن تجد العون على تحقيق فكرة الوطن القومى فى

فلسطين .. ولظلت هذه الفكرة خيالا مجنونا ليس له أى أمل فى الواقع .

وأنا أكتب هذه الخواطر وأمامى مذكرات حاييم وايزمان رئيس جمهورية اسرائيل ومنشئها الحقيقى ، وهى المذكرات التى نشرها فى كتابه المشهور « التجربة والخطأ » وثمة عبارات معينة ذات طابع خاص تستوقفنى فيه .

يستوقفنى قول وايزمان :

« لقد كان يجب أن تساعدنا دولة كبرى ، وكانت فى العالم دولتان تستطيع كل منهما مساعدتنا ألمانيا وبريطانيا .

أما ألمانيا فقد آثرت أن تبتعد عن كل تدخل .

وأما بريطانيا فقد أحاطتنا بالرعاية والعطف » .

ويستوقفنى بعد ذلك قول وايزمان :

ولقد حدث فى المؤتمر الصهيونى السادس الذى عقدناه فى سويسرا أن وقف هرتزل يعلن يهود الدنيا أن بريطانيا العظمى ، وبريطانيا العظمى وحدها دون كل دول الأرض ، قد اعترفت باليهود كأمة ذات كيان مستقل ، منفصلة عن غيرها .

واننا نحن اليهود خليقون بأن يكون لنا وطن ، وبأن تكون لنا دولة ، وقرأ هرتزل خطابا من اللورد لاترسون نائبا عن الحكومة البريطانية يتضمن هذا المعنى . وكان هذا الخطاب يقدم لنا أرض أوغندا لتكون وطنا قوميا .

وقرر أعضاء المؤتمر قبول هذا العرض .

ولكننا بعد ذلك كتمنا أنفاسه في المهد ودفناه دون ضجة ، وعادت بريطانيا تريد أن تسترضينا .

وعلى أثر هذا العرض ألفنا لجنة من عدد كبير من علماء اليهود سافروا الى مصر لدراسة منطقة سيناء وقابلوا فى القاهرة اللورد كرومر المعتمد البريطانى فى مصر الذى أظهر كل العطف على أمانينا فى الوطن القومى .

ولكن اللجنة لم تجد فى منطقة سيناء ما يفى بالغرض الذى كنا من أجله نريد الوطن القومى .

ولقد قابلت بعدها لورد بلفور وزير خارجية بريطانيا الذى بادر بسؤالى على الفور :

لماذا لم تقبلوا اقامة الوطن القومى فى أوغندا ؟

وقلت لبلفور :

ان الصهيونية حركة سياسية قومية ، هذا صحيح ، ولكن الجانب الروحى منها لا يمكن اغفاله ، وأنا واثق تمام الوثوق أننا اذا أغفلنا الجانب الروحى فاننا لن نستطيع تحقيق الحلم السياسى القومى .

ثم قلت لبلفور :

« ماذا تقول لو أن أحدا قال لك خذ باريس بدلا من لندن ، هل تقبل ؟ »

ويستوقفني أيضاً قول وايزمان :

« وعدت الى لندن فى خريف سنة ١٩٢١ وكان الغرض من رجوعي انني دعيت الى لندن لأشرف على كتابة مشروع وثيقة الانتداب البريطانى فى فلسطين .

وكان يجب أن تعرض هذه المسودة على عصبة الأمم لتصدر بها قرارا بعد أن وافق مؤتمر سان ريمو على فكرة الانتداب نفسها .

وكان لورد كيرزون قد ولى وزارة الخارجية محل بلفور ، وكان هو المسئول عن وضع مشروع الوثيقة .

وكان معنا فى لندن القانوني الشهير ابن كوهين ، وهو من أقدر واضعى الصيغ القانونية فى العالم ، وكان ايريك فوربس آدام سكرتير كيرزون يتعاون معنا .

ووقع بيننا وبين كيرزون خلاف أول وأخير :

كتبنا نحن فى مشروع الوثيقة عبارة أردنا أن تقيد بريطانيا فيها بوعد بلفور ، وبأن تكون خطتها فى فلسطين قائمة على أساس الوطن القومى لليهود ، وكان نص العبارة التى كتبناها نحن :

« والاعتراف بحقوق اليهود التاريخية فى فلسطين »

وقال كيرزون انه يقترح تخفيف العبارة حتى لا يهيج العرب عند قراءتها ، وقال انه يرى أن تكون كما يلى :

«والاعتراف بصلات اليهود وعلاقاتهم التاريخية فى فلسطين»

وكنت أود أن أستطرد طويلا مع وايزمان فى « التجربة والخطأ » ... ولكننا جميعا نعلم أن هذه الحوادث القديمة كانت الجراثيم الأولى للمضاعفات التى مزقت كيان فلسطين ودمرت وجودها !.

* * *

وأعود الى الذى كنت أقوله من أن الاستعمار هو القوة الكبرى التى تفرض على المنطقة كلها حصارا قاتلا غير مرئى ، أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذى كان يحيط بخنادقنا فى « الفالوجا » وبجيوشنا جميعا وبحكوماتنا فى العواصم التى كنا نتلقى منها الأوامر .

ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق فى نفسى ، أومن بكفاح واحد مشترك ، وأقول لنفسى :

ــ ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد .. والعدو واحد مهما يحاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة ــ فلماذا تشتت جهودنا ؟.

ثم زادتنى تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو ايمانا بهذا الكفاح الواحد وضرورته .

فقد بدأت خبايا الصورة تنكشف ، والظلام الذى كان يحيط بتفاصيلها ينقشع .

وأعترف أنى كذلك بدأت أرى العقبات الكبرى التى تسد الطريق الى الكفاح الواحد ، ولكنى بدأت أومن بأن هذه العقبات نفسها ينبغى أن تزول ، لأنها من صنع ذلك العدو الواحد نفسه .

ولقد بدأت أخيرا فى اتصالات سياسية من أجل توحيد الكفاح مهما تكن وسيلته،وخرجت بعد شهر من هذه الاتصالات بنتيجة هامة ، هى العقبة الأولى فى طريقنا هى « الشك » وكان واضحا أن بذور هذا الشك قد بذرها فى نفوسنا ذلك العدو الواحد نفسه ، لكى يحول بيننا وبين الكفاح الواحد !.

وأذكر أنى جلست فى الأيام الأخيرة أتحدث مع أخ من ساسة العرب ، وكان معنا زميل له ، وبدأت أتكلم ، وبدأ هو يرد على الذى أقوله ..

وكان يقول العبارة ثم يلتفت الى زميله ليرى أثر الذى يقوله فى وجهه بدل أن يحاول استكشاف أثره فى أنا .

وبدأت أقول له : تغلب على كل ما فى نفسك من شكوك ، وقل لى كل ما فى قلبك ، وانظر فى عينى ولا تدر وجهك !.

ولست أريد بذلك أن أهون من أمر العقبات التى تحول بيننا وبين توحيد الكفاح ، فلاشك أن بعضها معقد تمتد أصوله الى طبيعة البيئة وظروف شعوبها التاريخية والجغرافية ، ولكن المؤكد أنه يمكن مع شىء من المرونة القائمة على بعد النظر ، لا على

التفريط ، ايجاد الخط الذى يستطيع الجميع أن يقفوا فيه ، بلا تحرج ، وبلا عنت ، لمواجهة الكفاح الواحد .

ولست أشك دقيقة فى أن كفاحنا الواحد يمكن أن يعود الينا وعلى شعوبنا بكل الذى نريده لها و نتمناه .

ولسوف أظل دائما أقول اننا أقوياء ولكن الكارثة الكبرى ، أننا لا ندرك مدى قوتنا !.

اننا نخطىء فى تعريف القوة ، فليست القوة أن تصرخ بصوت عال ، انما القوة أن تتصرف ايجابيا وبكل ما تملك من مقوماتها.

وحين أحاول أن أحلل عناصر قوتنا لا أجد مفرا من أن أضع ثلاثة مصادر بارزة من مصادرها يجب أن تكون أول ما يدخل فى الحساب .

أول هذه المصادر أننا مجموعة من الشعوب المتجاورة ، المترابطة بكل رباط مادى ومعنوى يمكن أن يربط مجموعة من الشعوب ، وأن لشعوبنا خصائص ومقومات وحضارة انبعثت فى جوها الأديان السماوية المقدسة الثلاثة ، ولا يمكن قط اغفالها فى محاولة بناء عالم مستقر يسوده السلام .

هذا هو المصدر الأول .

أما المصدر الثانى : فهو أرضنا نفسها ومكانها على خريطة العالم . وذلك الموقع الاستراتيجى الهام الذى يعتبر بحق ملتقى طرق العالم ، ومعبر تجارته ، وممر جيوشه .

يبقى المصدر الثالث : وهو البتـرول الذى يعتبـر عصب الحضارة المادية ، والذى بدونه تستحيل كل أدواتها ــ المصانع الهائلة الكبيرة لكافة أنواع الانتاج ، وسائل المواصلات فى البر والبحر والجو ، أسلحة الحرب سواء فى ذلك الطائرات المحلقـة فوق الضباب أو الغواصة المتسترة تحت أطباق الموج ــ تستحيل كلها قطعا من الحديد يعلوها الصدأ لا تنبعث منهـا حركة .. أو حياة .

وبودى لو وقفت قليلا عند البترول ، فلعل وجوده كحقيقة مادية تقررها الاحصائيات والأرقام يصـلح ليـكون نمـوذجا للمناقشة فى أهمية مصادر القوة فى بلادنا .

ولقد قرأت أخيرا رسالة طبعتها جامعة شـيكاغو عن ظروف البترول وبودى لو كان لكل فرد من أفراد شعوبنا أن يقـرأها ويتدبر معانيها ويسرح بفكره فى المعنى الـكبير الـكامن وراء ارقامها واحصائياتها :

تقرر هذه الرسالة مثلا أن العمل لاستخراج بترول البـلاد العربية لا يتكلف كثيرا من المال .

« لقد صرفت شركات البترول ٦٠ مليونا من الدولارات فى أكولومبيا ابتداء من سنة ١٩١٦ ولم تعثر على قطرة زيت الا فى سنة ١٩٣٦ .

وصرفت هذه الشركات ٤٤ مليونا من الدولارات فى فنزويلا ولم تحصل على قطرة من الزيت الا بعد مرور ١٥ سنة .

وصرفت هذه الشركات ٣٩ مليـونا من الدولارات فى جزر الهند الهولندية وأخيرا عثرت على الزيت . »

وكانت النتيجة الأخيرة التى قررتها هذه الرسالة فى هـذا الموضوع :

ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا هو ٧٨ سنتا .

ان رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى أمريكا الجنوبية هو ٤٣ سنتا .

وأن رأس المال المطلوب لاستخراج برميل من الزيت فى البلاد العربية هو ١٠ سنتات .

ان عاصمة انتاج البترول فى العالم قد انتقلت من الولايات المتحدة التى استنزفت آبارها وارتفع سعر الأرض فيهـا وزادت أجور الأيدى العاملة لأبنائها ، الى المنطقة العربيـة التى مازالت آبارها بكرا ، والتى مازالت أراضيها بلا ثمن، والتى مازالت يدها العاملة تقبل ما دون الكفاف .

ولقد ثبت أن نصف الاحتياطى المحقق من البترول فى العالم يرقد تحت أرض المنطقة ، والنصف البـاقى موزع بين الولايات المتحدة وروسيا ومنطقة الكاريبى وغيرها من بلاد العالم .

وثبت أيضا أن متوسط انتاج البئر الواحد فى اليوم من الزيت هو :

١١ برميلا فى الولايات المتحدة .

٢٣٠ برميلا فى فنزويلا .

٤٠٠ برميل فى المنطقة العربية .

هل أوضحت مدى أهمية هذا العنصر من عناصر القوة ؟ أرجو أن أكون قد وفقت .

واذن فنحن أقوياء ، أقوياء ليس فى علو صوتنا حين نولول، ولا حين نصرخ ، ولا حين نستغيث ، انما أقوياء حين نهدأ ، أو حين نحسب بالأرقام مدى قدرتنا على العمل ، وفهمنا الحقيقى لقوة الرابطة بيننا ، هذه الرابطة التى تجعل من أرضنا منطقة واحدة لا يمكن عزل جزء منها عن كلها ، ولا يمكن حماية مكان منها بوصفه جزيرة لا تربطها بغيرها رابطة .

***

هذا عن الدائرة الأولى التى لا مفر من أن ندور عليها وأن نحاول الحركة فيها بكل طاقتنا ، وهى الدائرة العربية .

فاذا اتجهت بعد ذلك الى الدائرة الثانية ، وهى دائرة القارة الافريقية قلت دون استفاضة ودون اسهاب . اننا لن نستطيع بحال من الأحوال — حتى لو أردنا — أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يدور اليوم فى أعماق افريقيا بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الافريقيين .

ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله .

ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .

ويبقى بعد ذلك سبب هام ، هو أن النيل شريان الحياة لوطننا يستمد ماءه من قلب القارة .

ويبقى أيضا أن السودان ـ الشقيق الحبيب ـ تمتد حدوده الى أعماق افريقيا ويرتبط بصلات الجوار مع المناطق الحساسة فى وسطها .

والمؤكد أن افريقيا الآن مسرح لفوران عجيب مشين ، وأن الرجل الأبيض الذى يمثل عدة دول أوربية يحاول الآن اعادة تقسيم خريطتها ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نقف أمام الذى يجرى فى افريقيا ونتصور أنه لا يمسنا ولا يعنينا .

ولسوف أظل أحلم باليوم الذى أجد فيه القاهرة معهدا ضخما لأفريقيا يسعى لكشف نواحى القارة أمام عيوننا ويخلق فى عقولنا وعيا افريقيا مستنيرا ويشارك مع كل العاملين من كل أنحاء الأرض على تقدم شعوب القارة ورفاهيتها .

* * *

ثم تبقى الدائرة الثالثة .. الدائرة التى تمتد عبر قارات ومحيطات ، والتى قلت انها دوائر اخوان العقيدة الذين يتجهون معنا أينما كان مكانهم تحت الشمس الى قبلة واحدة ، وتهمس شفاههم الخاشعة بنفس الصلوات .

ولقد ازداد ايمانى بمدى الفاعلية الايجابية التى يمكن أن تترتب على تقوية الرباط الاسلامى بين جميع المسلمين أيام ذهبت مع البعثة المصرية الى المملكة العربية لتقديم العزاء فى وفاة عاهلها الراحل الكبير .

ولقد وقفت أمام الكعبة وأحسست بخواطرى تطوف بكل ناحية من العالم وصل اليها الاسلام ، ثم وجدتنى أقول لنفسى :

ــ يجب أن تتغير نظرتنا الى الحج ، لا يجب أن يصبح الذهاب الى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد . أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة .

يجب أن تكون الحجج قوة سياسية ضخمة ، ويجب أن تهرع صحافة العالم الى متابعة انبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صورة طريفة لقراء الصحف ، وانما بوصفه مؤتمرا سياسيا دوريا يجتمع فيه كل قادة الدول الاسلامية ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها وشبابها ، ليضعوا فى هذا البرلمان الاسلامى العالمى خطوطا عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معا ، حين يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام .

يجتمعون خاشعين .. ولكن أقوياء ، متجردين من المطامع .. لكل عاملين ، مستضعفين لله .. ولكن أشـداء على مشـاكلهم وأعدائهم ، حالمين بحياة أخرى..ولكن مؤمنين أن لهم مكانا تحت الشمس يتعين عليهم احتلاله فى هذه الحياة .

وأذكر أنى قلت بعض خواطرى هذه لجلالة الملك سـعود ، فقال لى الملك :

ــ ان هذه هى فعلا ، الحكمة الحقيقية من الحج .

وفى الحق أنى لا أستطيع أن أتصور للحج حكمة أخرى .

وحين أسرح بخيالى الى ثمـانين مليـونا من المسـلمين فى اندونيسيا وخمسين مليونا فى الصين ، وبضعة ملايين فى المـلايو وسيام وبورما ، وما يقرب من مائة مليون فى الباكستان ، وأكثر من مائة مليون فى منطقة الشرق الأوسط ، وأربعين مليونا داخل الاتحاد السوفيتى ، وملايين غيرهم فى أرجاء الأرض المتباعدة ــ حين أسرح بخيالى الى هذه المئـات من المـلايين الذين تجمعهم عقيدة واحدة ، أخرج باحساس كبير بالامكانيات الهـائلة التى يمكن أن يحققها تعاون بين هؤلاء المسلمين جميعا ،تعاون لا يخرج عن حدود ولائهم لأوطانهم الأصيلة بالطبع ، ولكنه يكفـل لهم ولاخوانهم فى العقيدة قوة غير محدودة .

ثم أعود الى الدور التائه الذى يبحث عن بطل يقوم به .. ذلك هو الدور ، وتلك هى ملامحه ، وهذا هو مسرحه .. ونحن وحدنا بحكم « المكان » نستطيع القيام به .





الناشر

الدار القومية للطباعة والنشر